

مصطفى محمود



أنا شبيك الأنثرو والبراعة



دار المعارف

مصطفى محمود

أنا شيد الآثار والبراعة

الطبعة الثانية



دار المعارف

الحب ما هو ؟

لو سألتى أحدكم . . ما هي علامات الحب وما شواهدة لقلت
بلا تردد أن يكون القرب من المحبوبة أشبه بالجلوس في التكييف في يوم
شديد الحرارة وأشبه باستشعار الدفء في يوم بارد . . لقلت هي الألفة
ورفع الكلفة وأن تجد نفسك في غير حاجة إلى الكذب . . وأن يرفع
الحرج بينكما ، فترى نفسك تتصرف على طبيعتك دون أن تحاول أن
تكون شيئاً آخر لتعجبها . . وأن تصمتا أنتما الاثنان فيحلو الصمت وأن
يتكلم أحدهما فيحلو الإصغاء . . وأن تكون الحياة معاً هي مطلب كل
منكما قبل النوم معاً . . وألا يطفئ الفراش هذه الأشواق ولا يورث
الملل ولا الضجر وإنما يورث الراحة والمودة والصداقة . . وأن تخلو
العلاقة من التشنج والعصبية والعناد والكبرياء الفارغ والغيرة السخيفة
والشك الأحمق والرغبة في التسلط ؛ فكل هذه الأشياء من علامات
الأنانية وحب النفس وليست من علامات حب الآخر . . وأن تكون

السكينة والأمان والطمأنينة هي الحالة النفسية كلما التقيتا .

وَأَلَّا يَطُولَ بَيْنَكُمَا الْعِتَابُ وَلَا يَجِدَ أَحَدُكُمَا حَاجَةً إِلَى اعْتِذَارِ الْآخَرِ
عِنْدَ الْخَطَا ، وَإِنَّمَا تَكُونُ السَّمَاحَةُ وَالْعَفْوُ وَحَسَنُ الْفَهْمِ هِيَ الْقَاعِدَةُ . .
وَأَلَّا تَشْبَعُ أَيْكُمَا قَبْلَةَ أَوْ عِنَاقٍ أَوْ أَى مَزَاوِلَةٍ جَنَسِيَّةٍ وَلَا تَعُودَ لَكُمَا رَاحَةٌ
إِلَّا فِي الْحَيَاةِ مَعًا وَالْمَسِيرَةِ مَعًا وَكِفَاحِ الْعَمْرِ مَعًا .
ذَلِكَ هُوَ الْحُبُّ حَقًّا .

وَلَوْ سَأَلْتُمْ . . أَهْوَى مَوْجُودٌ ذَلِكَ الْحُبُّ . . وَكَيْفَ نَعَثَرُ عَلَيْهِ ؟ لَقُلْتُ
نَعَمْ مَوْجُودٌ وَلَكِنْ نَادِرٌ . . وَهُوَ ثَمَرَةُ تَوْفِيقِ إِلَهِي وَلَيْسَ ثَمَرَةُ اجْتِهَادِ
شَخْصِي .

وَهُوَ نَتِيجَةُ انْسِجَامِ طِبَائِعٍ يَكْمُلُ بَعْضُهَا الْبَحْضُ الْآخَرُ وَنَفُوسٍ
مَتَأَلِّفَةٌ مَتَرَاحِمَةٌ بِالْفِطْرَةِ .

وَشَرَطُ حَدُوثِهِ أَنْ تَكُونَ النُّفُوسُ خَيْرَةً أَصْلًا جَمِيلَةً أَصْلًا .
وَالْجَمَالَ النَّفْسِيَّ وَالْخَيْرَ هُوَ الْمَشْكَاةُ الَّتِي يُخْرِجُ مِنْهَا هَذَا الْحُبُّ .
وَإِذَا لَمْ تَكُنِ النُّفُوسُ خَيْرَةً فَلَهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْطَى فَهِيَ أَصْلًا
فَقِيرَةٌ مَظْلَمَةٌ لَيْسَ عِنْدَهَا مَا تَعْطِيهِ .

وَلَا يَجْتَمِعُ الْحُبُّ وَالْجَرِيمَةُ أَبَدًا إِلَّا فِي الْأَفْلَامِ الْعَرَبِيَّةِ السَّخِيفَةِ
الْمُفْتَعَلَةِ . . وَمَا يَسْمُونَهُ الْحُبُّ فِي تِلْكَ الْأَفْلَامِ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ شَهَوَاتُ
وَرَغْبَاتٍ حَيَوَانِيَّةٍ وَنَفُوسٍ مَجْرُمَةٍ تَتَسَرَّعُ بِالْحُبِّ لِتَصِلَ إِلَى أَغْرَاضِهَا .
أَمَّا الْحُبُّ فَهُوَ قَرِينُ السَّلَامِ وَالْأَمَانِ وَالسَّكِينَةِ وَهُوَ رِيحٌ مِنَ الْجَنَّةِ ،

أَمَّا الَّذِي نَرَاهُ فِي الْأَفْلَامِ فَهُوَ نَفْثُ الْجَحِيمِ .

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْحُبُّ قَدْ صَادَفَكُمْ وَإِذَا لَمْ يَصَادَفْكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ
فِي حَيَاتِكُمْ فَالسَّبَبُ أَنْكُمْ لَسْتُمْ خَيْرِينَ أَصْلًا فَالطَّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ
وَالْمَجْرِمُ يَتَدَاعَى حَوْلَهُ الْمَجْرُمُونَ وَالْخَيْرُ الْفَاضِلُ يَقَعُ عَلَى شَاكِلَتِهِ . .
وَعَدَلَ اللَّهُ لَا يَتَخَلَّفُ فَلَا تَلُومُوا النَّصِيبَ وَالْقَدَرَ وَالْحِظَّ وَإِنَّمَا لُومُوا
أَنْفُسَكُمْ .

وَقَدْ يَمْتَحِنُ اللَّهُ الرِّجَالَ الْأَبْرَارَ بِالنِّسَاءِ الشَّرِيرَاتِ أَوْ الْعَكْسِ وَذَلِكَ
بَابٌ آخَرُ لَهُ حِكْمَتُهُ وَأَسْرَارُهُ .

وَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ الْمَجْرِمِينَ وَالْقَتْلَةَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَامْتَحَنَ بِالْمَرَضِ أَيُّوبَ
وَبِالْفِتْنَةِ يُوسُفَ وَبِالْفِرَاعِينَ الْغُلَاطِ مُوسَى وَبِالزَّوْجَاتِ الْخَائِنَاتِ نُوْحًا
وَلُوطًا .

وَأَسْرَارُ الْفُشْلِ وَالتَّوْفِيقِ عِنْدَ اللَّهِ . . وَلَيْسَ كُلُّ فُشْلٍ نَقْمَةٌ مِنَ اللَّهِ .
وَقَدْ قَطَعَ الْمَلِكُ هِيرُودُوسُ رَأْسَ النَّبِيِّ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ وَقَدَّمَهَا مَهْرًا لِبَغْيَى
عَاهِرَةٍ .

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا انْتِقَاصًا مِنْ قَدَرِ يُوْحَنَّا عِنْدَ اللَّهِ . . وَإِنَّمَا هُوَ الْبَلَاءُ .
فَنَرَجُو أَنْ يَكُونَ فُشْلُنَا وَفُشْلُكُمْ هُوَ فُشْلُ كَرَمٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ مِنْ
الْبَلَاءِ الَّذِي يَمْتَحِنُ النُّفُوسَ وَيَفْجُرُ فِيهَا الْخَيْرَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّورَ وَلَيْسَ فُشْلُ
النُّفُوسِ الْمَظْلَمَةِ الَّتِي لَا حِظَّ لَهَا وَلَا قُدْرَةَ عَلَى حُبٍّ أَوْ عَطَاءٍ .
وَنَفُوسُنَا قَدْ تَخْفَى أَشْيَاءُ تَغِيبُ عَنْهَا نَحْنُ أَصْحَابُهَا . وَقَدْ لَا تَنْسَجِمُ

امرأة ورجل لأن نفسيهما مثل الماء والزيت متنافرتان بالطبيعة ، ولو كانا مثل الماء والسكر لذابا وامتزجا ولو كانا مثل العطر والزيت لذابا وامتزجا . . . والمشكلة أن يصادف الرجل المناسب المرأة المناسبة .

وذلك هو الحب في كلمة واحدة : التناسب . تناسب النفوس والطبائع قبل تناسب الأجسام والأعمار والثقافات .

وقد يطغى عامل الخير حتى على عامل التناسب فترى الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام يتزوج بمن تكبره بخمسة وعشرين عاماً ويتزوج بمن تصغره بأربعين عاماً فتحبه الاثنتان خديجة وعائشة كل الحب ولا تناسب في العمر ولا في الثقافة بينهما فهو النبي الذي يوحى إليه وهما من عامة الناس .

ونراه يتزوج باليهودية صفية صبيحة اليوم الذي قتل فيه جيشه زوجها وأباها وأخاها وشباب قومها وزهرة رجالهم واحداً واحداً على النطع في خيبر . . يتزوجها بعد هذه المذبحة فزراها تأوى إلى بيته وتسلم له قلبها مشغوفة مؤمنة ولم تكد دماء قومها تجف . . فكيف حدث هذا ولا تناسب وإنما أحقاد وأضغان وثارات . .

إنه الخير والخلق الأسمى في نفس الرسول الكريم ﷺ هو الذي قهر الظلمة وهو الذي حقق المعجزة دون شروط . .

إنه النور الذي خرج من مشكاة هذا القلب المعجز فصنع السحر وأسر القلوب وطوع النفوس حتى مع الفوارق الظاهرة وعدم التناسب

ومع الأضغان والأحقاد والثارات . .

إنما نتكلم نحن العاديون عن التناسب . .

أما في مستوى الأنبياء فذلك مستوى الخوارق والمعجزات . . وما زالت القلوب الخيرة والنفوس الكاملة التي لها حظ من هذا المستوى قادرة على بلوغ الحب وتحقيق الانسجام في بيوتها برغم الفروق الظاهرة في السن والثقافة . .

ذلك أن الحب الذي هو تناسب وانسجام بالنسبة لنا نحن العاديين . . هو في المستوى الأعلى من البشر نفحة وهبة إلهية . . ومن ذا الذي يستطيع أن يقيد على الله نفحاته أو يشترط عليه في هباته . .

وإذا شاء الله أن يرحم احداً فمن ذا الذي يستطيع أن يمنع رحمته . .

والحب سر من أعمق أسرار رحمته . .

ولا ينتهي في الحب كلام . .

أناشيد الإثم والبراءة

الحب

ملفوف أنا بين ذراعيك يا حبيبتي

ذراعاك مسكني وغرقني

وصدرك أرجوحتي

وخداك وسادتي وبردتي

وعينك إغفائي وراحتي

وكفالك ظلتي وواحتي

يا ضحكتي ودمعتي

ودميتي ولعبتي

يا وطني يا أمي يا طفلاتي

يا وصلة السر بالسر عند باب الموت والميلاد وانحاض والضنى

صدرك الرحمة والحنان

ويدالك الشفاء والغذاء والمودة

ونفسك السماوات الجميلة

لا تغيب عنها الشمس

ولا تظلم الليل ولا النهار

ولا تغيم في الليالي الشاتية

تجولت في العالم وعدت وأنا ما زلت بين شفيتك .

وصعدت إلى السماوات وجاوزت الثريا وأنا . ما زلت أتطلع إلى عينيك

في حضورك تكلم الصمت

وبين يديك توقف الزمن

وأصبح الماضي والحاضر والمستقبل هو الآن

وهرولت ساعات الآن ثم ذابت كأنها لحظة

وخيل إلينا من شفافية كلماتنا أننا هواء

وخيل إلى أنى لا أمسك شيئاً

وأننا تحولنا إلى كلمة

ثم تجردت الكلمة فأصبحت معنى

ثم انتشر المعنى كالعطر وتخلل كل شيء

ذلك هو وجودنا معاً يا حبيبتي

يجعل كل شيء ينطق

يجعل كل شيء ملكاً خاصاً لنا

ويجعل من العالم شقتنا الخاصة

وكأنما ولدنا لتونا اليوم

وفتحنا أعيننا على عالم جديد في كوكب آخر

ومنحنا حياة جديدة نعيشها جديدة كل الجدة

حبيبتي ماذا شربنا . . ؟ !

وماذا سكبت لى فى الكأس

لا شيء سوى قطرات من نور عينيك وذوب قلبك

إلهى . . أيها القادر على كل شيء .

كيف يشرب الناس الخمر . وفى قلوبهم كل هذا الرحيق

المعذرة

حبيبتي . .

برئت من يدي

وبرئت من عيني

وبرئت من فعلي

وبرئت من جلدي

إن كانت النوايا آثمة

واخوفى من علم ربى بالسرائر ! !

ويلنا ظلمنا نفسنا

هلكنا من اليوم لا نجاة

إن لم نفر بمغفرة

يا ضيعة العمر إن لم نفر بمغفرة

بل لا يأس من روح الله إلا الكفرة

ظلمت ربى الغفار الذى وسع كل شىء رحمةً وعلماً والذى خلق الضعف

كيف لا يحنو عليه أكثر من حنو الأم بالوليد

كيف لا يشفيه من نفسه ويرحمه

الابتهاال

إلهى . . يا منبع جميع الأنوار

ترى من نحب حينما ننظر إلى بعضنا البعض . . ؟ !

وهل نحب إلا نورك أنت وأثر يديك على الصلصال

وهل يسكرنا إذا سكرنا إلا نفخة روحك التى نفختها فينا

وهل نطالع فى كل جميل إلا وجهك

وهل كل يد شافية وكل قبة رحيمة إلا ترجان رحمتك

فكيف يا إلهى تضل بنا الأودية وتتفرق بنا السكك وتخرج من

اسمك إلى أسمائنا فنسجن أنفسنا فى هذا الصدر أو نتوه فى ذلك المعنى أو

نهاجر فى تلكما العينين وتتسكع أيدينا على نحاس الأضرحة فنلثم الشفاه
ونخيل إلينا أننا نذوق خمرك وما نذوق إلا زجاج الكؤوس التى أودعت
فيها ذلك الرحيق الخفى الذى هو سر أسرارك .

ونخيل إلينا أننا بلغنا المنهى وما بلغنا إلا لمس الغلاف وتحسس
المحارة أما اللؤلؤ داخل المحارة . . والنور المغيب فى شغاف القلوب والسر
المودع فى العيون فليس لنا منه إلا حظّ القرب والمطالعة والاستشراق
من بُعد حيث لا وصال ولا اتصال ولا انفصال ولا نوال . . وإنما فى
الذروة من الإحساس . . يأتى ذلك الإغماء . . وتلك الغيبوبة
الصاحية . . وتلك النشوة الغامرة . . حينما نوشك أن نكون قاب
قوسين أو أدنى من لقاء السر بالسر .

ولا سر إلا سرّك وإن تعددت الأسماء وتنوعت المفاتن واختلفت
الوجوه .

إنما هو أنت وحدك المحبوب أينما توجه قلب محب . . وأنت وحدك
المعبود أينما توجهت نظرات عابد .

وأنت وحدك الرازق وإن تعددت الأيدي التى تعطى .

إنما تستمد جميع المصابيح نورها من نورك .

كل مصباح يأخذ منك على حسب استعدادده ويعطى من نورك
على حسب شفافيته .

ولكن العطاء فى الأصل منك والجمال منك والنور منك .

سبحانك لا شريك لك .

سبحانك والحمد لك .

سبحانك والحب لك .

سبحانك ما لثمت إلا أباديك وما قبلت إلا وجهك . . . وما سبحت
إلا لنور عينيك وإن نطقت في كل مرة اسمًا غير اسمك فإنما هو ضلال
اللسان في القراءة وضلال العين في الرموز وقراءة الشيطان للشفرة
الخطأ . . . وإنما هو التخبط في الحجب ولثم الأضرحة وتقويل
النحاس . . . وغفلة الطبع عن الحقيقة .

يارب . . . سألتك باسمك الرحمن الرحيم أن تنقذني من عيني
فلا تريني الأشياء إلا بعينك أنت وتنقذني من يدي فلا تأخذني بيدي
بل بيدك أنت تجمعني بها على من أحب عند موقع رضاك . . . فهناك
الحب الحق . . . وهناك أستطيع أن أقول . . . لقد اخترت . . . لأنك أنت
الذي اخترت . . . وأنت الوحيد الذي توثق بجميع الاختيارات وتبارك
كل الحريات . . . أنت الحرية ومنك الحرية وبك الحرية وأنت الحب
ومنك الحب وبك الحب .

أنت الحق والحقيقة .

وما عدا ذلك أضرحة ونحاس وخشب وصلصال وحجارة
وأهداب وعيون ومحاجر وأوثان تسجد لأوثان .

لا تدعني يا إلهي في الظلمة ألثم الحجارة وأعانق الصلصال وأعبد
الوثن .

بشفة الشيطان لثمت هذه الأشياء وظننت أنها شفتي وبذراعي
الشيطان عانقت وظننت أنها ذراعي .

استحلفتك بضعتي وقوتك

وأقسمت عليك بعجزى واقتدارك

إلا جعلت لي مخرجًا من ظلمتي إلى نوري ومن نوري إلى نورك
سبحانك . . .

لا إله إلا أنت

لا إله إلا الله .

بدون خيانة من أحد

تسألني . . ما الذى أحبيته فيك .

سوف تعجب إذا قلت لك إنها تجاعيد جبينك والخطوط الغائرة في
خدريك وذلك الحزن القديم فى صوتك والإرهاق المستمر فى عينيك
وتلك الخطى المكدودة والكلام القليل والشروود والصمت الحائر
وكأنك تحاول أن تمسك بجبال اللاشئ .

إنه الضنى . .

ضنى المشوار الطويل الذى مشيته .

الضنى مجسداً فى ملامح وصوت وإنسان وقد أحبت فىك هذا
الضنى الناطق المعبر .

إنه الإنسانية كلها فى رجل .

وحينما أعطيتك يدي لتحتويها يدك وأعطيتك أسرارى لتفترشها
أسرارك . . أدخلتك من لحظة فى سواد العين وأسكنتك المهجة

وأصبحت أتنفسك مع كل شهيق وزفير وأعيشك مع الفطور وفنجان الشاي وجرائد الصباح وتليفونات الأقارب وصوت المترو وضجيج الميناء .

إنها أيام نادرة . . ذلك اللقاء العابر في نابولي .

بل هي حالة خاصة جداً ونادرة أن يلتقي اثنان كل منهما تجرد من ظروفه وطرح خلفه كل شيء من ماضٍ وهموم وارتباطات ومشاكل ليعطى نفسه خالصةً مجردةً نقيةً للآخر .

إنها لحظات أشبه بماء أعيد تقطيره من شوائبه وأعيد ترشيحه من رواسبه عدة مرات حتى أصبح شفافاً مقطراً نقياً مثل النور المذاب . وكذلك كانت نشواتنا في تلك الأيام .

كانت مستخلصةً نقيةً رائعةً صافيةً مثل أشعة الفجر . . وكان طعمها وكأنها من كوكب آخر . . وكأنها من الجنة .

تلك حالة لم أعشها طوال حياتي من قبل . . ولم أعرفها . . ولا أظن أني سوف أعيشها بعد ذلك أو أعرفها أبداً . أنت تقول . . كنا نحلم .

وأنا أقول . . بل كل لحظة كانت واقعية . . وكل دقيقة كانت حقيقةً . . وأكاد أشم عطرك في مناديلي وأكاد أشعر بعرق يديك في كفي بل كل حياتي قبلها كانت هي الحلم . وكل حياتك قبلها كانت خيلاً .

وكل الدنيا قبلها كانت وهماً .

كنت عمياء طول الوقت حتى أبصرتك وكنت وحيدةً حتى صاحبتك وكنت لا آكل ولا أشرب حتى أكلت معك وشربت معك . . وكنت لا أضحك ولا أبكي حتى ضحكت معك وبكيت معك .

لم نكن نحلم إذن ولم يكن ما نعيشه حلمًا بل كان صحوة . ولكنها كانت مجرد فترة .

كانت مجرد صفحات من كتاب العمر ما لبث أن طوتها يد الأجل التي لا تكف عن الجريان . وحينما التقينا بعد ذلك في القاهرة قلت لي ساعتها . . إنك صدمت .

قلت لي إنك تصافح امرأة أخرى . . امرأة تكاد لا تعرفها . . وتكاد لا تعرفك .

واتهمتي ساعتها بخيانتك . . وبأن هناك رجلاً آخر . . ورميتني بالغدر والتلون . . وصدقني لقد رأيت أنا أيضاً فيك رجلاً آخر لا يكاد يعرفني . . ولا أكاد أعرفه .

ولكن لم يكن في الأمر خيانة .

وإنما كل ما حدث أن كلاً منا عاد إلى جلده والتقى بالآخر مرتدياً مناخ ظروفه الكامل مخنوقاً بمشاكله .

شاركنا جلستنا على النيل قضية طلاقى من زوجى ومستقبل
أولادى ورجل آخر كان يريد أن يتزوجنى ونفقات علاج أمى المريضة
بالخارج ، كما شاركنا الجرسون يناديك كل دقيقة لترد على تليفون
وتحيات معجبات على الموائد الأخرى عرفن فيك الموسيقى المشهور ، ثم
دخول واحدة بعد الأخرى على خلوتنا لتوقع لها فى الأوتوجراف . . ثم
مرور أولادك ليشاركونا الشاى . . ثم حكاية زوجتك الأولى
ومضايقاتها . . ثم حكاية القيلم . . ثم . . ثم . . ويومها اختلف كل
شئ .

فقدت اطمئنائى كما فقدت أنت اطمئنانك .

شعرت لأول مرة بأنك لست ملكى وإنما لى فيك شركاء عديدون
يشاركوننا الجلسة والحديث ثم باقى الليلة وباقى العمر سوف يشاركوننا
الطعام والفراش والحياة .

كما شعرت أنت أيضًا بنفس الشئ .

لم تجد تلك المرأة الخالصة التى رأيتها فى نابولى . . وإنما رأيت
زحاماً من الناس والمشاكل .

وأنكرتنى ..

وأنكرت نفسك .

وافقدت ذلك الإحساس النادر بالخلوص والتجرد والنقاء . . كما
افتقدته أنا أيضا .

وافترقنا بوجوه فاترة .

وطالت الفرقة .

وأصبحت مكالماتنا على فترات أبعد وأبعد .

وكنت أحس بنبرة الشك فى صوتك .

ولكن صدقنى يا مراد .

أنا لم أخنك مع أحد .

ولم أفكر فى خيانتك .

ولنأى الخائن الحقيقى والشريك الذى شاركنا هو الحياة ذاتها
بضغوطها وشواغلها وتنوعها وتلونها وحضورها وتكالييفها التى أبهظتنا
وخنقت الروح فى داخلنا .

تلك اللحظة المستخلصة المرشحة المقطرة من ذوب نفسى ومن
ذوب نفسك لم يعد هناك سبيل إلى استعادتها .

لقد حدث هذا فى لقاء نادر عابر ذات أمسيات شاعرية فى نابولى .
ولم يعد فى الإمكان أن تعود هذه الأمسيات أبداً وهذا طبع
الدنيا .

إن الخيانة كانت فى الدنيا نفسها ولم تكن فىنا .

والحكاية أننا سقطنا من كوكب الجنة إلى الأرض فجأة ولم نعد
نقبل تلوث الهواء وتضاغط الزحام وتدافع المناكب وتلاحم الأحقاد
والأضغان فى نسيج لقمة العيش المريرة .

كيف نشرب الماء مالحًا بعد أن ذقناه عذبًا فرائًا ؟

كيف نعيش التلوث بعد أن عشنا النقاء ؟

كيف نرحف على بطوننا في أحوال المشاكل بعد أن كنا نخلق
بأجنحتنا في فضاء فسيح كله ملكنا ؟

كيف أشعر براحة وأنا أحس بكل شيء حولي يسرقك ويأخذك
ويشاركني فيك ؟

كيف أحبك في اطمئنان وكل هذه الضوضاء حولك وأضواء
الكاميرات حولك وعيون حسناوات عديدات تلمع حولك في كل
صورة . . وكل واحدة تهددني في مستقبلي ؟
وأنت .

ماذا كان شعورك وأنت تقرأ خطابات ذلك المجهول الذي
يغازلني ؟ . . وماذا قال لك خيالك وأنت تستمع إلى أولادى يحكون
عن أبيهم وكيف كان يحبني وكيف كنت أحبه ؟ . . ثم ذلك الرجل
الذى ينتظرني منذ عشرين عامًا ويحبني في صمت ورهبانية وفداء
ويتنظر اليوم الذى أكون فيه له .

هل يمكن أن تأخذنى بكل هؤلاء الشركاء وبكل هذه المنغصات
التي سوف تسرقنى منك حتى وأنا بين ذراعيك ؟

هل يمكن أن ترضى بالشروء والغياب في عيني وأنت تقبلنى ؟
وهل يمكن أن أقبل إعجاب امرأة أخرى وأنا أنظر إليك أم أن كلاً

منا سوف يرفض هذا الواقع ويعطى ظهره لصاحبه ويعود ليحلم بلقا
آخر في نابولي ؟

يعود ليحلم بتلك النشوة الخالصة المستقطرة من النور المذاب .
هل يمكن أن ننزل من سماواتنا لنعيش حياة الأرض معاً . . وهل
نصلح لحياة الأرض ؟

وهل نرضى حياة زوجيةً مكرورةً باهتة ؟
ألا ننكر فيها ما أنكرناه في بعضنا اليوم ثم نعود فنغامر ونحاول أن
نلمس سماء الجنة ولو أضعنا كل شيء ولو حطمتنا بعضنا بعضاً ؟
لا أدري كيف أجيب . ؟

ونفسى تراوغنى كلما حاولت أن أفهمها .
فهل تدري أنت ؟
صدقنى أنا لا أعرف ماذا أريد بالضبط ؟
ولا من أنا ؟

وكل ما أعلمه بيقين أنى عشت ذات يوم بملء النفس حيناً كنت
لى المهجة والفؤاد وسواد العين وكل شيء .
وأنها كانت لحظة عرفناها اختلاصاً .
وأنها مرت ولا سبيل إلى عودتها أبداً .
ومأساة الزمن . . أنه لا توجد لحظة فيه تتكرر مرتين . . وإنما هو
نهر دائم الجريان يتغير فيه الماء باستمرار وبلا توقف .

شيء واحد يمكن أن يردني إليك هو إحساسى الدائم بأنه لا يوجد
فى الكون نفسان تتبادلان معاً أخذاً وعطاءً وبكل العمق مثل نفسى
ونفسك .

وأحياناً أقول لنفسى . . حتى إذا لم يبق لى إلا الحزن . . فلا أجمل
من أن أتبادلته معك . . حتى الملل واليأس فلن يكونا كأعمق ما يكونان
إلا معك .

والفشل هو أروع ما يكون معك .
والبؤس لن يكون هو البؤس العظيم إلا معك . . شيء مضحك .
كم أود أن أنتقم منك . . يا حياى . . وانتحارى .
إن الحقائق فى ذروة تناقضها تبدو دائماً مضحكة .

هكذا أشعر وأنت أبعد ما تكون عنى أنك أقرب ما تكون إلى . .
وأنت فى دمي ونحاعى . . وفى إنكارى واستنكارى ورفضى حينما
أنكرك وأستنكر وأرفضك .

هل أكرهك بمثل ما أحبك ؟
هل أصبحت كل عواطفى بسالبها وموجبها وفقاً عليك ؟
الويل للمرأة حينما تتسمم أعماق آبارها براحة رجل .
والويل لك منك .
والويل لى منى .

والويل لكل امرأة تنسى نفسها وتسرق منها الروح فى إغماضة عين .
والويل لنا من أنفسنا الأنانية حينما نطلب كل شيء ولا يرضينا أى
شيء ولا يشبعنا أى شيء . . حينما تصبح نفس كل منا هى جحيمه
الأبدى الذى لا خلاص منه ولو بالموت .

انقلاب

كتبت إلى تقول :

أنا زوجة لى عشر سنوات خدمة فى بيت الزوجية وأم لولدين
طلقت أثناءها ، ثم عدت لأستأنف حياةً فاترةً بلا طعم ، لا حب فيها
ولا كراهية ولا حماساً لشيء .

ضاعت الطرافة والبهجة والنشوة التى عرفتها فى سنوات الزواج
الأولى حينما كنت أعطى بسخاء من روحى وعقلى وجسمى حيث بدأ
زواجنا بحب واقتناع برغم فارق السن الكبير .

ولكن الطرافة سرعان ما انتهت وبدأت بينى وبين زوجى فجوة
ظلت تتسع وتتسع حتى أصبحت حياتنا مجرد جوار ومساكنة لاثنين
غريبين يتكلمان لغات مختلفة فى بيت واحد . . هو لياليه مقسمة بين
شارع الهرم وبين سهرات الأصدقاء وصفقات العمل والعلاقات
النسائية الخاصة . . وأنا أيامى أعيشها فى الغيظ والكبت والقهر . . ثم

أتمرّد على نفسي بين حين وآخر فأردّ على خياناته بخيانات مثلها تبدأ
لتنتهي بسرعة وتخلّف في داخلي حالة من التشتت والضياغ والخواء
وعدم الرضى والإحباط التام .

وهكذا كانت حياتنا في السنوات الأخيرة التي حدث فيها الطلاق
ثم العودة .

ولاشك أنك تسأل الآن . . . ولماذا عدت إليه بعد الطلاق ؟
وعندك حق .

وأنا أيضًا ما زلت أسأل نفسي . . . لقد قلت لنفسي حينذاك . .
أعود من أجل الأولاد . . . وقلت لنفسي هو أبوهم وهو أفضل من
الغريب . . . وقلت لنفسي هو أقدر على توفير الحياة المادية المريحة
والنفقات الباذخة التي تعودناها فهو غني . لكن ربما كان السبب الأهم
هو ذلك الرباط الخفي الذي يربطنا . . . فإنه بما أعطاني وسلبنى وبما دمر
في نفسي من أخلاقيات ومثل . . . أصبحت أشعر بعدها أنني من صنعه
وأني أدين له بالقلق والتوتر والخراب والشتات الذي أصبح الآن هو
الحالة السائدة لنفسي .

كلانا أصبح مثل المأكولات المعلبة التي فسدت وكتب عليها غير
صالح للاستعمال . . .

وبرغم أنه لم يبق في قلبي شيء من الغرام القديم . .
وبرغم أنني أصبحت لا أحبه ولا أكرهه . .

إلا أنه بما أتلف وأفسد ودمر في نفسي واعداتي وسلوكياتي أصبح
في النهاية هو حياتي أصبح هو طبعي الخوان الغادر . .
وهو عيني المتلفتة وراء الرجال وهو جرأتى التي أفعل بها ما أشاء . .
فأنا أولى الناس به .

وهو أولى الناس بي .
وهكذا عدت إليه بحكم التشاكل والمجانسة لأستأنف حياة أكثر
فشلاً وأكثر إحباطاً وأكثر تورطاً .

ما أكثر ما تعكر الماء في داخلي .
وما أكثر ما أظلمت سماواتي الجميلة الباطنية وأطبقت عليها
السحب السود .
حتى قابلته .

ذلك الرجل الناضج الإنسان الرقيق العطوف الحنون الذي طالما
كنت أحلم به .

وتعلقت به تعلق الظمآن بالماء . . . وتعلق هو بي وأمسك كل منا
بالآخر وتعلق بتلاييه .

وتشبث كفى بكفه كأنه طوق نجاة .
ومضت أيام كالحلم .

ومسحت يده على باطني فأضاءت سماواتي وشعرت أنني أعود إلى
بكارتي ونشواتي الأولى وأعود إلى تفتحي ونضارتي وتألقي وتوهجي

وعطائي السخى بلا حدود ولكنها كانت مجرد أيام . . .

مجرد لحظات تحصى على أصابع يد واحدة ثم ما لبثت أن عادت السحب السود فأطبقت على داخلي وتعكرت مياهي حتى ظهر الخواء والشرود في نظراتي فكان يقول لي دائماً . . . أين أنت . . . أنت لست معي . . .

نعم . . . عدت عجزاً دفعةً واحدة . . .

وعاودتني الغربة والإحساس بالشتات . . . والعجز عن العطاء . . . وأظلمت سماواتي . . . وكفّت يدي عن أن تنبض في يده . . . وأصبحت أشبه بورقة غياب .

إنه يحبني بكليته ويريد الزواج بي ويعرض على نفسه وروحه وما يملك وأنا أشعر أني متقلبة ملولة لا يستقر بعواطفى قرار . . . وكل ما أحصل عليه أزهده فيه . . .

وأنا أسأل نفسي :

هل أستطيع أن أبدأ حياةً جديدة ؟

هل أستطيع أن أقوم بعملية بتر كامل أقطع فيها صلتى بالماضى بما

فيه من خراب وتلف واعوجاج ؟

هل يمكن أن أكون خالصة له ؟

ألن يدخل زوجى الأول بما أحدثه من إتلاف ودمار شريكاً خفياً في هذه الزيجة . . . وكذلك أولادى . . . وكذلك أولاده هو فهو أيضاً

زوج سابق وله أولاد . . .

وهل يبقى له ولى شىء بعد هذا الزحام ؟

إنه مأخوذ بما أعطيت من حب وفناء ذات لحظة ذات مساء شاعرى .

ولكن هل يدوم لى هذا الصفاء وهل تدوم لى هذه القدرة على العطاء .

إنها لم تدم بالفعل . . .

ولقد رأى سماواتى تظلم ونظراتى تشرذم ويدي تنسحب من يده . . . ولقد افتقدنى وأنا معه ، ولقد رأيت يته يتألم لهذا الافتقاد ثم يعود فيقول :

سوف أحبك فى كل حالاتك . . .

ترى هل يصدق ؟

ومن يدريه بأن تلك الحالة ربما سادت وامتدت وأصبحت هى كل حالاتى . . . وأصبحت لحظات الصفاء فى ندرة شمس الشتاء فى القطبين ؟

فهل يرضى بى زوجةً شاردةً غائبةً مشتتة ؟

وهل انتهى زوجى من حياتى بالفعل وخرج منها بلا عودة أم أنه ما زال كل حياتى يربطنا نحن الاثنين دينونة واحدة وخراب تأصل حتى احتوانا . . . برغم أنى لا أحبه ولا أكرهه ؟

أحياناً نخل إلى أن بناء حياة جديدة بالنسبة لى أشبه بدولة صغيرة
ربطت عملتها واقتصادها ومبادلاتها التجارية بدولة كبرى طاغية . . ثم
هى تفكر بعد فوات الأوان فى قطع العلاقات وتغيير العملة وفسخ
التعاملات لتبدأ علاقةً جديدةً بدولة جديدة .

وأحياناً أشعر أن حجم التبادلات مع هذا الرجل الذى أصبحت
لا أحبه ولا أكرهه . . هو حجم يكاد يكون هائلاً حتى ليكاد يكون
بخيره وشره هو حياتى . . ويكاد يكون الخروج من فلكه كالسقوط فى
فراغ .

نعم . . هل أقول إنه بما أفسد ودمر . . له أثر فى نفسى وفى حياتى
أكبر من أثر هذا الرجل الجديد . . وإن كان أثراً سيئاً هداماً ؟
إنه حضور . . ولو كان حضوراً بالسلب والإضرار والتخريب .
ولكنه حضور .

وأنا لن أكون خالصةً أبداً .

وسوف أجرجر خلفى العديد من الأشباح .

وسوف يشاركنا الفراش خلق كثير .

فهل يرضى بذلك الزوج الجديد ؟

وهل يحبنى بهذا الحال ؟

وهل أرضى أنا ؟

ألا أعود فألتفت فى وجوه الرجال بحثاً عن لحظة هروب واسترخاء

ونسيان ؟ ! . . ألا أعود فألتمس أى مهرب من التوتر والإحباط فى
علاقات جديدة وخيانات جديدة . . ؟

ألا أعود فتجبنى قدماى إلى الزوج الأول بحكم الأولاد والمشاكلة
فى المصير وحجم التبادلات التى قد ترجح فى النهاية ما بادلته أى رجل
من خير وشر ؟

وأى رجعة فاشلة تكون !

إلى أين أسير . . ؟

وأين تسوقنى قدماى ؟

لا أريد أن أسير وراء الهوى بل وراء العقل ولا أريد أن أكرر
الفشل . . ثم أعود فأعالج الفشل بفشل أكبر .

ولا أريد أن أظلم نفسى وأظلم من أحبنى معى .

ولا أريد أن أسترسل فى أحلام بلا أمل فى استقرار .

أريد برّ أمان .

أريد راحة .

بماذا تنصحنى ؟

قرأت الرسالة ولبثت فى حيرة .

وطال بى التفكير . .

إن هذه الزوجة بما وصفت به نفسها هى أبعد ما تكون عن الأمان

وبرّ الأمان . . . وهي في خطر من نفسها أكثر مما هي في خطر من أى مخلوق .

ولا نجاة لها الا بانقلاب داخل يبدلها من الأعماق ومعاناة تحرق حطبها وتذرى رمادها وتجلو معدنها من جديد .

لا بدّ لها أن تعبر الجحيم أولاً لتصل إلى برّ ، أى برّ . . .

لا بدّ لها أن تكتوى حتى نخاع العظم وتبكي حتى تبيض العينان ، وتسجد حتى تذوب وتبهل حتى تفنى وتعطى نفسها لهدف كبير تضمحل معه الأهداف الصغيرة وتشغل عقلها برسالة شريفة تستغرقها وتستغرق همومها الشخصية . . .

فإن كان رجلها الجديد سيأخذ بيدها إلى هذه النقطة ويكون عوناً لها في هذا الانقلاب الداخلى وهذا التطهر الكامل فهو نجاتها .

أما إن كان الأمر في نظرها هو مجرد انتقال من رجل إلى رجل ومن ذراعين إلى ذراعين . . . فلن يكون إلا انتقالاً آخر بلا جدوى . . . لأنها سوف تصحب معها في كل مكان خواءها النفسى وتوترها وقلقها وهمومها الشخصية ولن تصل إلى برّ أمان وإنما ستظل « محلك سر » تنتقل من خيانة إلى خيانة .

ولا نجاة ولا عبور ولا خلاص إلا بالخروج من تكوينها النفسى إلى تكوين نفسى آخر . . . من هموم شخصية ونفس انفرادية شخصية . . . إلى نفس اجتماعية مشغولة بالمشاركة في أهداف كبرى

وحياة خصبة مثمرة مفيدة للناس تذوب فيها الهموم الصغيرة .
فإن كان زواجها الجديد سيخرج بها من شخصانيتها إلى حياة جديدة مثمرة مفتوحة فلتمض فيه . . . وإلا فلتلزم مكانها مع زوجها في رف المعلبات التى كتب عليها غير صالح للاستهلاك . . . فحفظها من حياتها لن يزيد عن القلب من رجل إلى رجل ومن ذراعين إلى ذراعين في حياة محصولها النهائى صفر .

إن مشكلتها الحقيقية ليست هي تغيير الرجل وإنما تغيير النفس . . . وليس الحلّ هو خروجها من بيتها وإنما خروجها من نفسها من طبعها وسلوكياتها وعاداتها واهتماماتها واختياراتها فهل هذا ممكن ؟ !
إنها وحدها التى تستطيع أن تجيب وهو سؤال مرتبط بسؤال آخر أكثر صعوبة :

ما هو طبعها بالأصالة . . . وما جوهرها ؟

وماذا تريد بنفسها ؟

وماذا يرضيها على وجه الحقيقة ؟

وما تصورها لهدفها الذى خلقت من أجله وما تصورها للعالم

وحكمتها وغايتها ؟

وما الخطأ والصواب في نظرها ؟ !

وما الحدود التى تتوقف عندها في طلبها للذة . . . وهل عندها تلك

الحدود أصلاً ؟

وماذا تخاف .. وهل تخاف ؟

وما هو الشيء الذى تحسب له ألف حساب فى النهاية .. فإن كان هذا الشيء هو راحتها ولذتها وأكلها وشرها ولبسها ومظهرها وتأثيرها على الناس .. فإنها واقفة عند نفسها لا تبرح .. ولن تجد لمشكلتها حلاً .

إنما يبدأ الحلّ حينما يتجاوز الإنسان نفسه ويعلو عليها باحثاً عن الأسمى والأرفع .

حينذاك يكون هناك أمل .. مهما اختلفت التصورات فى هذا الهدف الأسمى الذى نتجاوز أنفسنا طلباً له .

فالفنان يطلب الجمال .

والمفكر يطلب الحقيقة .

والتائر السياسى يطلب العدالة .

والمصوفى العارف يطلب الله .

وهم قد اختلفوا فى الظاهر ولكنهم ما اختلفوا فى الحقيقة .. فإن الحق العدل البديع الجميل كلها من أسماء الله .

وإنما الذى اختلف وتخلف وتوقف وتعثر وهلك هو الذى لم يطلب سوى نفسه ولم يختر سوى نفسه فبدأ من نفسه وانتهى عند نفسه . ومثله لا يفيق من هذه القوقعة التى أغلقها عليه شهواته إلا لحظة الموت حينما يكتشف أنه عبأ الهواء فى جوانات وجمع الفراغ فى حقائب

وأنه لم يجمع شيئاً سوى العدم ..

وهو اكتشاف إذا تأخر إلى لحظة الموت فقد جاء بعد فوات الأوان .

ونصيحتى لها أن تكفّ عن البحث عن رجل .. وأن تبحث فى أعماق نفسها أولاً وأخيراً ..

العذاب ليس له طبقة

الذى يسكن فى أعماق الصحراء يشكو مرّ الشكوى لأنه لا يجد الماء الصالح للشرب .

وساكن الزمالك الذى يجد الماء والنور والسخان والتكييف والتليفون والتليفزيون لو استمعت إليه لوجدته يشكو مرّ الشكوى هو الآخر من سوء الهضم والسكر والضغط .

والمليونير ساكن باريس الذى يجد كل ما يحلم به ، يشكو الكآبة والخوف من الأماكن المغلقة والوسواس والأرق والقلق .
والذى أعطاه الله الصحة والمال والزوجة الجميلة يشك فى زوجته الجميلة ولا يعرف طعم الراحة .

والرجل الناجح المشهور النجم الذى حالفه الحظ فى كل شيء وانتصر فى كل معركة لم يستطع أن ينتصر على ضعفه وخضوعه للمخدر فأدمن الكوكايين وانتهى إلى الدمار .

والملك الذى يملك الأقدار والمصائر والرقاب تراه عبداً لشهوته
خادماً لأطماعه ذليلاً لتزواته .

وبطل المصارعة أصابه تضخم فى القلب نتيجة تضخم
العضلات .

كلنا نخرج من الدنيا بحظوظ متقاربة برغم ما يبدو فى الظاهر من
بعد الفوارق .

وبرغم غنى الأغنياء وفقر الفقراء فمحصولهم النهائى من السعادة
والشقاء الدنيوى متقارب .

فالله يأخذ بقدر ما يعطى ويعوض بقدر ما يحرم وييسر بقدر
ما يعسر . . ولو دخل كلُّ منا قلب الآخر لأشفق عليه ولرأى عدل
الموازن الباطنية برغم اختلال الموازين الظاهرية . . ولما شعر بحسد
ولا بحقد ولا بزهو ولا بغرور .

إنما هذه القصور والجواهر والحلى والآلئ مجرد ديكور خارجى من
ورق اللعب . . وفى داخل القلوب التى ترقد فيها تسكن الحسرات
والآهات الملتاعة .

والحاسدون والحاقدون والمغتربون والفرحون مخدوعون فى الظواهر
غافلون عن الحقائق .

ولو أدرك السارق هذا الإدراك لما سرق ولو أدركه القاتل لما قتل
ولو عرفه الكذاب لما كذب .

ولو علمناه حق العلم لطلبنا الدنيا بعزة الأنفس ولسعينا فى العيش
بالضمير ولتعاشرنا بالفضيلة فلا غالب فى الدنيا ولا مغلوب فى الحقيقة
والحظوظ كما قلنا متقاربة فى باطن الأمر ومحصولنا من الشقاء والسعادة
متقارب برغم الفوارق الظاهرة بين الطبقات . . فالعذاب ليس له
طبقة وإنما هو قاسم مشترك بين الكل . . يتجرع منه كل واحد كأساً
وافيةً ثم فى النهاية تتساوى الكؤوس برغم اختلاف المناظر وتباين
الدرجات والهيئات .

وليس اختلاف نفوسنا هو اختلاف سعادة وشقاء وإنما اختلاف
مواقف . . فهناك نفس تعلو على شقائها وتتجاوزه وترى فيه الحكمة
والعبرة وتلك نفوس مستنيرة ترى العدل والجمال فى كل شىء وتحب
الخالق فى كل أفعاله . . وهناك نفوس تمضغ شقاءها وتجتثه وتحوله إلى
حقد أسود وحسد أكال . . وتلك هى النفوس المظلمة المحجوبة
الكافرة بخالقها المتمردة على أفعاله .

وكل نفس تمهد بموقفها لمصيرها النهائى فى العالم الآخر . . حيث
يكون الشقاء الحقيقى . . أو السعادة الحقيقية . . فأهل الرضا إلى النعيم
وأهل الحقد إلى الجحيم .

أما الدنيا فليس فيها نعيم ولا جحيم إلا بحكم الظاهر فقط بينما فى
الحقيقة تتساوى الكؤوس التى يتجرعها الكل . . والكل فى تعب .
إنما الدنيا امتحان لإبراز المواقف . . فما اختلفت النفوس إلا

بمواقفها وما تفاضلت إلا بمواقفها .

وليس بالشقاء والنعيم اختلفت ولا بالحفظ المتفاوتة تفاضلت
ولا بما يبدو على الوجوه من ضحك وبكاء تنوعت .
فذلك هو المسرح الظاهر الخادع .

وتلك هي لبسة الديكور والثياب التنكرية التي يرتديها . الأبطال
حيث يبدو أحدها ملكاً والآخر صعلوكاً وحيث يتفاوت أماننا المتختم
والمحروم .

أما وراء الكواليس .

أما على مسرح القلوب .

أما في كوامن الأسرار وعلى مسرح الحق والحقيقة . . فلا يوجد
ظالم ولا مظلوم ولا متختم ولا محروم . . وإنما عدل مطلق واستحقاق
نزاهة يجري على سنن ثابتة لا تتخلف حيث يمد الله يد السلوى الخفية
يخنو بها على المحروم وينير بها ضمائر العميان ويلاطف أهل المسكنة
ويؤنس الأيتام والمتوحدين في الخلوات ويعوض الصابرين حلاوة في
قلوبهم . . ثم يميل بيد القبض والحقض فيطمس على بصائر المترفين
ويوهن قلوب المتخمين ويؤرق عيون الظالمين ويرهل أبدان المسرفين . .
وتلك هي الرياح الخفية المنذرة التي تهب من الجحيم والنسمات المبشرة
التي تأتي من الجنة . . والمقدمات التي تسبق اليوم الموعود . . يوم
تنكشف الأستار وتهتك الحجب وتفترق المصائر إلى شقاء حق وإلى نعيم

حق . . يوم لا تنفع معذرة . . ولا تجدى تذكركه .

وأهل الحكمة في راحة لأنهم أدركوا هذا بعقولهم وأهل الله في
راحة لأنهم أسلموا إلى الله في ثقة وقبلوا ما يجريه عليهم ورأوا في أفعاله
عدلاً مطلقاً دون أن يتعبوا عقولهم فأراحوا عقولهم أيضاً فجمعوا
لأنفسهم بين راحتين راحة القلب وراحة العقل فأثمرت الراحة راحة
ثالثة هي راحة البدن . . بينما شقى أصحاب العقول بمجادلاتهم .
أما أهل الغفلة وهم الأغلبية الغالبة فما زالوا يقتل بعضهم بعضاً من
أجل اللقمة والمرأة والدرهم وفدان الأرض ، ثم لا يجمعون شيئاً إلا
مزيداً من الهموم وأحمالاً من الخطايا وظمماً لا يرتوى وجوعاً لا يشبع .
فانظر من أي طائفة من هؤلاء أنت . . واغلق عليك بابك وابك
على خطيئتك .

عن الانتحار

من العجيب أن التقدم الذي جاء بمزيد من وسائل الترف والراحة
وبمزيد من التسهيلات للإنسان . . قد قابله الإنسان بمزيد من الرفض
والسخط والتبرم ، فرأينا إحصائيات الانتحار ترتفع مع مؤشرات
التقدم في كل بلد . . كلما ازداد البلد مدنيةً ازداد عدد الذين يطلقون
على أنفسهم الرصاص ويلقون بأنفسهم من النوافذ ويبتلعون السم
ويشربون ماء النار . . هذا غير الانتحار المستر بالخمور والمخدرات
والتدخين والمنومات والمسكنات والمنبهات . . وفي مقدمة هؤلاء
المنتحرين طلائع فن وفكر وثقافة تعود الناس أن يأخذوا عنهم الحكمة
والعلم والتوجيه .

ووصلت الموجة إلى بلادنا فامتلات أعمدة الصحف بأخبار ابتلاع
السم وإطلاق الرصاص والشنق والحرق . . وقال المختصون إن نسبة
الزيادة الإحصائية تجاوزت العشرين في المائة . . وهو رقم كبير .

والازدياد متواصل سنةً بعد سنة .

والسؤال . . لماذا . . وما السر ؟

وما سبب الانتحار ؟

وإذا تركنا التفاصيل جانباً وحاولنا تأصيل المشكلة وجدنا جميع أسباب الانتحار تنتهي إلى سبب واحد . . أننا أمام إنسان خابت توقعاته ولم يعد يجد في نفسه العزم أو الهمة أو الاستعداد للمصالحة مع الواقع الجديد أو الصبر على الواقع القديم .

إنها لحظة نفاذ طاقة ونفاذ صبر ونفاذ حيلة ونفاذ عزم .

لحظة إلقاء سلاح . . بأس . . ما يلبث أن ينقلب إلى اتهام وإدانة للآخرين وللدنيا ثم عداوة للنفس وللآخرين وللدنيا تظل تتصاعد وتتفاقم حتى تتحول إلى حرب من نوع مختلف يعلنها الواحد على نفسه ويشنها على باطنه ، وفي لحظة ذروة تلتقط يده السلاح لتقتلع المشكلة من جذورها . . ولتقتلع معها الإحساس المرير وذلك بطمس العين التي تبصر وقطع اللسان الذي يذوق وتحطيم الدماغ الذي يفكر وتدمير اليد التي تفعل والقدم الذي يمشي .

وهو نوع من الانفراد بالرأى والانفراد بالحل ومصادرة جميع الآراء الأخرى بل إنكار أحقية كل وجود آخر غير الذات .

ولهذا كانت لحظة الانتحار تتضمن بالضرورة الكفر بالله وإنكاره وإنكار فضله واليأس من رحمته واتهامه في صناعته وفي عدله ورفض

أياديه ورفض أحكامه ورفض تدخله .

فهى لحظة كبر وعلو وغطرسة واستبداد .

وليست لحظة ضعف وبؤس وانكسار .

وبدون هذا العلو والكبر والغطرسة لا يمكن أن يحدث الانتحار أبداً .

فالإنسان لا ينتحر إلا في لحظة دكتاتورية مطلقة وتعصب أعمى لا يرى فيه إلا نفسه .

فالانتحار في صميمه اعتزاز بالنفس وتآله ومنازعة الله في ربوبيته .

والمنتحر يختار نفسه ويصادر كل أنواع الوجود الآخر في لحظة غلٍّ

مطلق . . في لحظة جحيم . .

ولهذا يقول الله أن من يقتل نفسه يهوى إلى جحيم أبدي ، لأنه قد

اختار الغلَّ وانتصر للغلَّ وأخذ جانب الغل عند الاختيار النهائي للمصير .

والانفراد المطلق في الرأى عصبية وغلَّ ونارية إبليسية . . والنفس

المتكبرة الأمارة بالسوء هى نار محضه وظلمة . .

وكل منا في داخله عدة احتمالات لنفوس متعددة . . في داخل كل

منا نفس أمارة ظلمانية توسوس له بالشر والشهوات . . ونفس لوامة

نورانية تحضه على الخير ثم كل المراتب النفسية علواً وسفلاً فوق وتحت

هاتين المتزلزتين .

وكل نفس في حالة تذبذب مستمر بين هذه المراتب صاعدة هابطة
فهي حيناً ترتفع إلى آفاق ملهمة وحيناً تهبط إلى مهاو مظلمة شهوانية .
ثم في النهاية تستقر . . فإذا استقرت فإنها تستقر على حقيقتها وعلى
منزلتها التي سوف تلوم لها إلى الأبد وسوف تبعث عليها .

فالنفس التي استقرت على الرقص والكبر والغطرسة والغلّ ثم
اقتلعت أسنانها ولسانها وسمعها وبصرها وقطعت رقبتها في غلّ نهائي
لا مراجعة فيه هي قد اختارت الجحيم بالفعل . بل إنها هي ذاتها قبضة
نار لا مكان لها إلا في الجحيم .

(ناراً وقودها الناس والحجارة)

يقول ربنا إن هذه النفوس هي وقود النار وجمراتها ومصدر الطاقة
النارية فيها ، ومعنى هذا أنها أشدّ نارية من النار .

والمتحرر يتصور أنه سوف يتخلص من نفسه ، ولكن لا خلاص
ولا مهرب للإنسان من ذاته ، فهو لن يخرج بالانتحار إلى راحة ، بل
هو خارج من النار الصغرى إلى النار الكبرى ومن النار الزمنية إلى النار
الأبدية .

ولتجنب هذا المصير فإننا لابد أن نتجنب المشكلة أصلاً .

والمشكلة أصلاً هي التعلق . . ومن ليس له تعلق بشيء لا ينتحر
لشيء .

ولا يجوز عند المؤمنين تعلق إلا بالله فهو وحده جامع الكمالات ،

الدائم الباقي الذي لا يتغير ولا تحيب عنده التوقعات ولا تضيق الآمال .
والله هو المحبوب وحده على وجه الأصالة وما نحب في الآخرين إلا
تجلياته وأنواره فجبال الوجوه من نوره وحنان القلوب من حنانه فنحن
لا نملك من أنفسنا شيئاً إلا بقدر ما نخلع علينا سيدنا ومولانا من أنواره
وأسمائه .

فنحن لا نحب في بعضنا إلا هو .

وهو حاضر لا يغيب ولا يهجر ولا يغدر ولا يغلق بابه في وجه
لاجئ ولا يطرد من رحابه ملهوف .

فالواقفون عنده مطمئنون راضون ناعمون لا يخطر لهم الانتحار
على بال سعداء في جميع الأحوال .

إنما ينتحر من تعلق بغيره .

الذي تعلق بليلاه ومعشوقته وظن أن جلالها منها فتعلق بها لذاتها
تعلق عبادة ، وأصبح يتوقع منها ما يتوقع عبد من معبود وربط نفسه
بها رباط مصير . ونسى أنها ناقصة كسائر الخلق ومحل للتغير والتبدل
تداول عليها الأحوال والتقلبات فتكره اليوم ما أحبه بالأمس وترهد
غداً فيما عشقته اليوم .

ونسى أن جلالها مستعار من خالقها وأنها إعارة لأجل وحينما ينتهي
الأجل ستعود أقبح من القبح .

مثل هذا الرجل المحبوب الغافل إذا أفاق على الصحو المريعة

وفاجأه الغدر والتحول يشعر شعور من فقد كل رصيده وأفلس إفلاس الموت ولم يبق له إلا الانتحار .

ولو أنه رأى جمالها من خالقها لأحب فيها إبداع صنعة الصانع ولكان من أهل التسبيح الذين يقولون عند رؤية كل زهرة . . الله . . فإذا رأوها في آخر النهار ذابلة . . قالوا حقًا لا إله إلا الله . . فحبُّهم لله وفي الله وروابطهم روابط مودة ومعروف لا مقصد لها ولا غرض ولا توقع . . فالغدر لا يفجأهم والهجر لا يصدّمهم وشأنهم كما يقول المثل العامي . . اعمل الخير وارمه البحر . . يبسطون أيديهم بالمعونة دون حساب لأيّ عائد ودون توقع لثمرة .

هؤلاء هم أهل السلامة دائماً .

وهم أهل الطمأنينة والسكينة لا تزلزلهم الزلازل ولا تحركهم النوازل .

هم أهل الطمأنينة اليوم .

وهم أهل الطمأنينة يوم الفزع الأكبر . . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، ويوم لا ينفع مال ولا بنون .

وهؤلاء لا يتعلقون إلا بالله .

ولا يؤملون إلا في الله .

ولا يتوقعون إلا من الله .

وفي كتاب المواقف والمحادثات لمحمد بن عبد الجبار بن الحسن

النفرى يقول الله لعبده :

يا عبد اهدم ما بنيت بيدك قبل أن أهدمه بيدي .

يا عبد إن شهدت أن كل شيء لي لم ترتبط به .

يا عبد إن طلعت عليك شمس أو ترنم طائر فاستر وجهك فإنك إن رأيت غيري عبدته وإن رآك غيري عبدك . . ثم لا تنفعكما شفاعة الشافعين .

يا عبد إذا استندت إلى شيء فقد اعتصمت به دوني وكتبتك مشرّكاً .

بتلك الكلمات العالية الرفيعة المحلقة يصور ابن عبد الجبار عالم اليوم ويصور لون الشرك الذي نعيشه اليوم وكيف أصبح هذا الشرك الخفي يداخل كل قلب ويخالط كل سلوك . . وكيف أن المشكلة هي بالدرجة الأولى مشكلة إيمان . . فكلمنا وضعت التكنولوجيا في يد الإنسان قوة وثروة واستغناء ازداد بُعداً وغروراً وكبراً وتمرداً ، وازداد تعلقاً وارتباطاً بالأصنام المادية التي خلقها ، وازداد خضوعاً للملذات التي يسرها لنفسه . . وتصور أن قوته سوف تعصمه وعلمه سوف يحميه فأمعن في غروره .

وهل عصم الجبل ابن نوح من الطوفان ؟ !

بل كان من المغرقين .

(فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) .

ضع يدك في يد الله ولا تبرح وحسبك من علاقتك بالناس أن
نبذل لهم مودتك ورحمتك على غير توقع لشيء . . . فذلك هو قارب
النجاة في عالم اليوم . . . عالم الانتحار والمنتحرين .

والمحصول صفر

لا يوجد وهمٌ يبدو كأنه حقيقة مثل الحب . . .
ولا حقيقة نتعامل معها وكأنها الوهم مثل الموت فليس هناك أمر
مؤكد أكثر من الموت ، ومع ذلك لا نفكر أبداً بأننا سنموت ، وإذا
حدث وفكرنا لا يتجاوز تفكيرنا وهماً عابراً عبور النسيم .
والعكس في حالة الحب ، فرغم أن الحب دائماً أمر يزينه الخيال
ويضخمه الوهم ويحسمه التصور وتنفخ فيه الشهوات ، ورغم أن
الحب يشتعل وينطفئ ويسخن ويبرد وقد ينقلب في لحظة إلى عداوة
وقد يتحول إلى جريمة ، ورغم أن أحوال الحب وتقلباته تشهد بأنه وهم
كبير ، إلا أننا نتعامل معه بالرهبة والتقديس والاحترام والخضوع
الواجب للحقائق المطلقة . . . ونظل على هذا الخلط والاختلاط حتى
نفيق على الصدمة فنصحو ونستعيد رشدنا لأيام أو شهور أو سنوات
ولكن لا نلبث أن نستسلم إلى إغماء جديد .

وسبب الخلط والاختلاط هو دائماً خطأ في النسبة . . فنحن دائماً
نسب الجمال الذى شاهدناه والحنان الذى تذوقناه إلى صاحبه مع أنها
ليست صاحبه ولا مالكة . . ولو امتلكت امرأة جمالها لدام لها . .
ولكن الجمال لم يدم لأحد ، لأنه منحة وإعارة من الله بأجل وميقات
وهو قرض يسترده فى حينه . . فصاحبه ومالكة هو الله وليس أى
امرأة .

وكذلك كل ما نعشق من حنان ومودة ورأفة وحلم وكرم كلها خلع
ومنع وأوصاف مستعارة من الودود الرؤوف الحليم الكريم . . وهو
مالكها بالأصالة . . ونحن نملكها عنه بالقرض والإعارة .

ولكن العين التى تعشق الجمال تخطئ نسبه وملكيته فتظنه لصاحبه
فتعشق صاحبه وتعبد صاحبه .

وهى تظل فى هذا الوهم حتى تفيق على القبح يطل من تحت
المساحيق والقسوة تظهر من وراء الأهداب فتصحو على الصدمة وتعانى
وتتعذب وتندم وتعتبر وتتوب ثم تعود فتنسى وتنزلق إلى وهم جديد . .

وتلك هى الغفلة المستمرة التى نعيش فيها جميعاً نفيق منها لحظات
لنعود فنغرق فى سباتها من جديد ولا يسلم من هذا البلاء إلا نبيٌّ
معصوم أو وليٌّ كامل أو صوفيٌّ عارف يحفظه ربّه ويسدل عليه
كفّه . . فلا يرى حيثما تولى إلا وجه الله .

(أيما تولو فثم وجه الله) .

فهو الجمال فى كل جميل وهو الرأفة والحنان والكرم والحلم
والمودة . . فتلك أسماؤه تتجلى فى أوانى الطين والخزف الشفافة التى
شفّها الإحساس حتى أصبحت مثل الكريستال المضيء تماماً كما يرى
الفلكي نور القمر فيعرف أنه ليس نوره بل نور الشمس تجلّى على
وجهه .

وهكذا لا يرى هذا العارف أينما تولى إلا وجه الله . . وهو دائم
الهمس . . الله . . الله . . الله . . الله . . الله . . وهو ناظر دائماً إلى
الظاهر وليس إلى المظاهر . . ناظر إلى الله الظاهر دائماً فى كل شيء . .
لا يطرف . . متعلّق بالمعاني وليس بالأوانى .

وهو لهذا فى حالة « جمعية » لا ينفرد ولا ينقسم ولا يتشتت
ولا يضيع فى التلقّت ، وإنما هو مجذوب الفؤاد إلى الله على الدوام .
ولكن أمثال هذا الرجل قليل نادر مثل الماس واليورانيوم وأمثاله
لا يتجاوزون أفراداً وآحاداً بين ألوف الملايين من الحشد الغافل المغشى
عليه .

وهى غفلة عامة غالبية لا ينجى فيها علم ولا ثقافة ولا دكتوراه
ولا ماجستير فتلك أبواب غرور تزيد من الغفلة . . فنرى العالم يضع
علمه فى خدمة هواه ، وعقله فى خدمة عاطفته ، ومواهبه فى خدمة
شهواته . فتصبح بلواه مضاعفة وصدمة قاصمة للظهر .

ويمضى العمر فى سلسلة من الغفلات والإغماءات مجموعها فى

الختام صفر أو هي في الحقيقة حاصل طرح وليست حاصل جمع .
فمجموعها في النهاية بالسالب وليس بالموجب فحياة صاحبها إلى نقصان
يومًا بعد يوم وسنة بعد سنة يخرج من وهم إلى وهم ومن خدعة إلى
خدعة .. حاله مثل حال الشارب من ماء مالح . كلما ازداد شربًا
ازداد عطشًا لا يحصل على سكية ولا يبلغ اطمئنانًا . وإنما هو هابط
دومًا من قلق إلى قلق . ومن تمزق إلى تمزق . ومن تشتت إلى تشتت .
حتى تنتهي حياته بلا ثمرة . وينتهي تحصيله بلا جدوى ..

وتلك هي العقلية الاستمتاعية السائدة اليوم في عالم وثني ،
أصنامة اللذة والغلبة والهوى .. معبود كل واحد نفسه وكتابه رأيه
ودستوره مصلحته .

والحال في الأمم المتخلفة والنامية أسوأ مما هو في الأمم المتقدمة ..
وهي أمم مجموعها أحيانًا « حاصل طرح أفرادها » وليس حاصل
جمعهم ، لأنهم منفرطون منقسمون متباعدون كالجزر التائهة في
البحر .. يضرب بعضهم بعضًا .. وعزمهم مستهلك .. وقوتهم
لا شيء ..

يتحدثون عن الوحدة .

ولا وحدة إلا بالواحد .

هو وحده الواحد لا إله إلا هو . الذي يخرج به كل واحد من
شئات نفسه وتخرج به الأمم من تفرقها ويخرج به العالم من انقسامه .

والقضية بالدرجة الأولى قضية إيمان .

هي قضية رؤية ..

كيف نرى العالم .. ؟

وكيف ننظر فيما حولنا .. ؟

وكيف نحب . ؟

هل نستطيع أن نكون ذلك العارف الكامل الذي لا يرى في كل
شيء إلا الواحد .. ولا يبصر إلا وجه ربّه في كل محبوب .

هل يمكن أن نكون مصداق الآية :

(أينما تولوا فثم وجه الله) .

وفي هذا الإطار نحب وفي هذا الإطار نكره .. فنبذل المروءة
والمعروف والمودة للجميع ولا يكون لنا تعلق ولا يكون لنا حب إلا لله
وبالله وفي الله .

ذلك هو الجهاد الصعب .

ولا اختيار ..

ولا طريق آخر .

وكل واحد وعزمه .

وكل واحد وهمته ..

وعبرة كل حياة بنحتمها ..

فلنسارع إلى المجاهدة ولنشمر السواعد حتى لا يكون محصول حياتنا

صفراً وحتى لا يمضى بنا كل يوم إلى نقصان وحتى لا يصبح كل يوم من أيامنا مطروحاً من الذى قبله .

إنما خلق الله الغواية لامتحان القلوب . . . وليعرف الكبار أنفسهم وليعرف الصغار أنفسهم من البداية . . .

وفى كتاب المواقف والمحاطبات للصوفى العارف محمد بن عبد الجبار ابن الحسن النفرى يقول الله لعبده .

« خلقتك لى . . لجوارى . . لتكون موضع نظرى ومحل عنايتى وبنيت حولك سداً من كل جانب غيراً عليك .

ثم أردت أن أمتحنك ففتحت لك فى السد أبواباً بعدد ما خلقت وبعدها ما أبديت من جواذب الإغراء .

وخارج كل باب زرعت لك شجرة وعين ماء باردة وأظلماتك وحلفت بآلائى ما انصرفت عني خارجاً لتشرب إلا ضيعتك فلا إلى

جوارى عدت ولا على الارتواء حصلت . . فقد ضللت عني ونسيت أنى أنا الارتواء الوحيد والسكن الوحيد لك . . وأنى أنا الله الحق خالق

كل هذه الصور والممد لكل جميل بجماله . . وأن كل شىء منى . يا عبد سترتك برحمتى وحجبتك عن كل هذه الأبواب وحجبتك

عن هذه الشواغل والصوارف فرأيتك تحاول أن تحرق الحجاب لتعاود ضعفك فلا تفعل فتعيش ذليل الأشياء سجين العطش الأبدى .

يا عبد لن تعرفنى حتى ترانى أوقى الدنيا أرغد وأهنا ما عرفت من

الدنيا لعبد عصى . .

فترضى بما حرمتك وتعلم أنى ما حرمتك إلا من غضبى وإعراضى .

يا عبد ميعاد ما بينك وبين أهل الدنيا أن تزول الدنيا فتري أين أنت وأين أهل الدنيا .

وتلك كلمات الصوفى العارف محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى . . صاحب أحلى الكلام . . والجالس على أعلى ذروة للتأمل بلغها إنسان .

أراد أن يرحمها

هي صاحبة مال وجمال ودلال .

في أناملها الرقيقة المرصعة من خواتم الماس والزمرد ما يكفي لبناء
جامعة .

وعلى كتفها معطف أنيق من فراء الفيزون النادر يكفي للإنفاق على
مستشفى .

وفي جراج بابا ثلاث عربات مرسيدس أمدّ الله في عمره وهو لا يردّ
لها طلباً . . وكلما رفض لها عريساً زادها في أصابعها خاتماً .

وهي بعد أن امتلكت الدنيا لا تعرف ماذا تريد بالضبط .

وهي وإن كانت لا تعرف ماذا تريد فإنها تعرف تماماً ماذا ترفض .

وهي ترفض كل ما يطرق عليها الباب .

حتى الطقس ترفضه . . فهو دائماً حار أكثر من اللازم أو بارد

أكثر من اللازم . . أو غائم أكثر من اللازم أو صحو أكثر من اللازم أو

رطب أكثر من اللازم .
كما أن الطعام دسم أكثر من اللازم أو مملح أكثر من اللازم أو
مسكر أكثر من اللازم أو ساخن أكثر من اللازم أو بارد أكثر من
اللازم .

ولابد أن ترى في كل شيء عيباً .
نوع من الدلع وسوء التربية .
عقدة الترف والوفرة .

وأف من هذا .
وأف من ذاك .

بردانة . . حرانة . . متضايقه . . قلقانة . . زهقانة . . يرن تليفونها
كل ثلاث دقائق .
تبكى بلا سبب .
من الضجر أحياناً . .

أو من عبء حرية لا تعرف فيما تنفقها ولا كيف تنفقها .
أو من أثقال ثروة لا تعرف كيف تبددها .
أو من وطأة زمن لا معقول يجر جر وراءه العقم واللاجدوى . .
والعبث الفارغ .

رأيها تدور كالفراشة حول غرفة نوم في معرض موبيليا . . وتحملق
في الأثاث المترف بعيون نائمة . . على السرير بطاقة بالثمن ٢٦ ألف جنيه .

ومن خلال أهدابها المطلية بالماسكارا تتأمل وسائل ريش النعام
والدولاب المكسو بالشاموا والازرار الإلكترونية في متناول اليد التي
تطفئ وتدير وتغير قنوات التليفزيون المثبت في أقصى السرير وتشغل
الستريو والبيك آب والكاسيت .

وسمعتها تمط شفتيها وتهمس في نبرة لا مبالية . . موش بطل .
لا شك أنها سوف تحدث صاحبها في التليفون بعد دقائق في شأن
هذه الغرفة .

ولا شك بعد ذلك أنها سوف تنسى الموضوع .
ثم إنها لن تفاجأ كثيراً حينما تطرق بابها عربة الأثاث تحمل إليها
غرفة النوم الأنيقة .
ولا شك أنها سوف تتمدد عليها كقطة . ولا شك أنها سوف
تتأهب في ملل بعد دقائق . . ثم ما تلبث أن تفقد الشعور بجهاها
وطرافتها .

فإنها كالعادة . . كل شيء تملكه ما تلبث أن ترهده .
ثم يعود كابوس الملل والضجر . . والزمن الثقيل الذي يجر جر قطار
اللاجدوى يضغط على أعصابها .
لا تحتقروها ياسادة .

ولكن أشفقوا عليها .
فإن الله لم يحتقر شيئاً حين خلقه .

ولو أنه احتقر شأنها لما خلقها من البداية . ولكن كل ما في
الأمر . . أنها امرأة مدللة لم تجد الأب الذي يؤدبها ولا الأم التي تنهرها
ولا الدنيا التي تقهرها .

ولكن الله لا يهمل أحداً . .

وقد كتب على نفسه في أزاله الرحمة للجميع .

وقال عن نفسه أنه الرب لا ربّ سواه . . وقد اقتضت رحمته أن
يقسو أحياناً على بعض خلقه ليصلحهم . .

فإنه لا يرضى أن تكون لنا عيون ولا نبصر وتكون لنا آذان
ولا نسمع .

وقد شقّ اللحم ليفتح عيون الأجنة في الأرحام كما شقّ الرؤوس
ليفتح مجارى الآذان .

وقد شاء ربنا عنايةً منه بهذه المرأة أن يرحمها .

فصحت الجميلة ذات صباح لتكتشف أنها مسلوقة نعمة البصر .

انطبقت الظلمة على عينيها تماماً فلم تعد تبصر شيئاً .

وصرخت وبكت وارتعدت رعباً .

واجتمع على رأس فراشها طبّ الأمريكان والإنجليز والفرنسيين

والأسبان .

وتداول علماء الشرق والغرب وانفضوا وهم يقلّبون الأكفّ يأساً

وعجزاً .

ولا شفاء . .

ولا حل . .

ولا أمل في حلّ .

وفي الظلمة المطبقة المطلقة . . كانت تتحسس وجه حبيبها وتبكي

في حرقة وتهمس .

أريد أن يرتد إلى بصرى لأرى وجهك .

هل تصدق أنى لم أر وجهك . . حيناً كانت لى عينان وحيناً كان

لى بصر لم أكن أراك .

لم أكن أرى سوى رغباتى .

لم أكن أشعر إلا بنفسى .

لم أكن أرى أحداً .

كان العالم كله مجموعة من المرايا لا أرى فيها إلا وجهى أنا . .

وجمالى أنا . . ورغباتى أنا . .

اليوم فقط أحاول أن أستشف ملامحك بأناملى وأحاول أن أتعرف

عليك . . وأحاول أن أقرب منك .

يا حبيبى كم أتمنى أن أراك . . وأن أعاشر وجهك بعينى .

وبكت وغسلت يديه بدموعها .

صدقوها ياسادة .

فهذه أول مرة تطلب شيئاً بحق وتتمنى شيئاً بحق . . وتشعر على

وجه اليقين أن هناك شيئاً يسعدها .
صدقوها . . . واسألوا لها الشفاء .
فاليوم ولدت إنسانيتها . . بفعل من أفعال الرحمة الإلهية . . وبسر
من أسرار الله الذي ينقذ رحمته في عذابه .

أهل النار

الغضب . . الحقد . . الحسد . . الغل . . الشهوة . . كلُّها نار . .
كلُّها تعمل في النفس أعمال النار وتأكل فيها كما تأكل النار في
الخطب .

وجهاد النفس هدفه محاصرة هذه النار ومغالبتها والتحكم فيها
وتخليص القلب منها .

ومن مات وفي نفسه شهوة لم يغلبها فقد مات وللنار فيه نصيب . .
ففي الآخرة تنهتك الأسرار وتنكشف الأستار وتظهر الخبايا وتفتضح
الحنايا وتبدو النفوس على ما هي عليه في حقيقتها إن كانت نوراً فنور
وإن كانت ناراً فنار .

فإن كانت ناراً اتصلت بما يجانسها . . ألا ترى بقع الزيت الطافية
في الماء تجتمع على بعضها وتنادى على بعضها وتلتحم ببعضها . . كما
تلتحم حبات الزئبق معاً وتتلاصق معاً .

فكذلك النار حينما تطلع على الأفئدة فإنها تلبس الأفئدة النارية وتسرح فيها كما تسرح النار في الهشيم .

ومهلة العمر هي الفرصة الوحيدة لمعالجة هذه النار الداخلية وإخمادها وذلك بالصلاة والذكر وجهاد النفس ومعاناة الخطأ والاكتواء بعواقبه واكتساب العبرة والخبرة والخروج بنور الحكمة من نار الألم .

فمن عاش عمره المديد ولم يزدد خبرة ولم يكتسب حكمة ولم يجاهد نقصاً وخرج من الدنيا بلا توبة وهو ما زال مغلوباً بشهواته منقاداً لناره فهو إلى النار ذاهب . . فهو والنار كلاهما من معدن واحد وهو في النار منذ الأزل وهو فيها دنيا وآخرة بحكم المشاكلة والمجانسة والنار حقيقته . . وهو بضعة منها . . إنما أطفأ الله ناره لبرهة قصيرة من العمر حينما خلقه وألقى عليه الماء والتراب وسواه طيناً . . فلما عاد تراباً . . وخلع الله عنه ثوبه الطيني عادت حقيقته النارية وظهر البركان الذي كان مستوراً خلف الضلوع .

وهذا حال أهل النار الذين هم أهلها (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) (٣٧ فاطر) .

ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . . فإنهم نار بحكم حقائقهم وسيعاودون الإجرام بحكم حقائقهم ولو أعاد الله خلقهم ألف مرة .

ولا يصح أن يلبس الأمر على القارئ فيشتبه عليه أن الله جبرهم على الشر بحكم ما أودع فيهم من حقائق الحسد والحقد . . سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً فإن الله يذكّرهم في قرآنه فينسب حسدهم إلى أنفسهم فيقول :
(حسداً من عند أنفسهم) .

فإن الله يخلق القلب محايداً صالحاً لأن يحتوي نية صاحبه إن كانت خيراً فخير وإن كانت شراً فشر ، والله جعل النية حرة والمبادرة القلبية حرة تماماً حتى الشيطان لا يستطيع أن يدخل القلب إلا بإذن صاحبه . . لم يجعل الله للشيطان سلطاناً قاهراً على القلوب فقال له :
(عبادي ليس لك عليهم سلطان) .

ولهذا لا يستطيع الشيطان أن يستهوى إلا الشيطانين أمثاله الذين يستضيفونه مختارين في قلوبهم ويفتحون له آذانهم . .

وحقائق النفوس ثابتة للنفوس منذ الأزل . . . وهي أسرارها المعلومة لله علماً قديماً لم يجبر الله نفساً على شر .

وكل نفس هي التي أسرت وكنمت وأخفت في طويتها هذه الشرور أو الخيرات .

(والله مخرج ما كنتم تكتمون) (٧٢ - البقرة) .

لم يقل : (خالق ما كنتم تكتمون) . . بل قال مخرج ما كنتم تكتمون فهو ليس مسئولاً عن حسد الحاسد وعن حقد الحاقد . . وإنما

هو مخرج ومظهر هذه الأشياء فقط بما يجريه علينا في الدنيا من اختبار
وابتلاء وتقلب في الأحوال . . ولكنه لم يخلقها في نفوس أصحابها .
والأمر خطير . .

ولو أدرك كل منا أنه على شفا حفرة من النار الفعلية وأن ناره فيه
أقرب إليه من أنفاسه لخرّ على ركبتيه ساجداً باكياً صارخاً متوسلاً .
ولأصبح من أهل الخوف والرجاء الذين يموتون كل يوم قبل أن
يموتوا .

فإن الله الذي خلق العالم بدقة مذهلة وإحكام مدهش والذي خلق
للإلكترونات المتناهية في الصغر مداراً لا يستطيع أن يتجاوزه . . فإذا
اقتضى الأمر أن ينتقل من مدار إلى مدار فإنه لا يستطيع أن يقفز إلى
الخارج أو إلى الداخل إلا إذا أعطى أو أخذ شحنة مساوية لحركته .
الخالق الذي قدر هذا الضبط والربط في حركة إلكترون متناه في
الصغر لن يستطيع أن يفلت منه مجرم ولن يستطيع أن يكرهه ما كرهه
الذي وصف نفسه بأنه خير الماكرين . . وبأنه خالق كل شيء . . بيده
مقاليد كل شيء . . العزيز الجبار المهيمن الذي ليس كمثله شيء . .
السميع البصير اللطيف الخبير الذي لا تأخذه سنة ولا نوم . . الذي له
الشفاعة جميعاً .

(وكم من مَلَكٍ في السموات لا تُغْنِي شفاعتُهم شيئاً إلا من بعد أن
يأذن الله لمن يشاء ويرضى) (٢٦ - النجم) .

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) (٣ - يونس) .
(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) (٤ - السجدة) .
ذلكم الله فطوبى لمن أدركه الخوف .

وطوبى للذاكرين الموت . .

الباكين في ساعات الوحدة .

المشفقين من يوم اللقاء .

الذين رأوا النار في نفوسهم قبل أن يروها رأى العين .

الذين استشفوا الحقائق واستبصروا الغيب ولمسوا الشواهد وأدركوا

الآيات وأيقنوا قبل زمان الإيقان .

أهل التسليم والخشوع لله .

اللهم اجعلنا منهم .

الشجرة

المرأة كالدنيا فيها تقلبات الفصول الأربعة .

تفىء إليها ذات يوم فتجد الظلّ والخضرة والعبير والثمر وتلجأ إليها
في يوم آخر فتراها تعرّت عن أوراقها وجفّت فيها الحياة وتوقف العطاء
لا ظلّ ولا زهر ولا ثمر .

تداول عليها الأحوال تداول الليل والنهار والربيع والخريف والمطر
والجفاف والجذب والنفاء .

فإن كنت عشقت الظلّ والخضرة والعبير والثمر فذلك ليس وجه
المرأة فإن للمرأة كلّ وجوه الدنيا وهي تشرق وتغرب مثل القمر وتطلع
وتأفل مثل الشمس وتورق وتذبل مثل الورد .. فإن كان ما تنورت به
عينها ذات مساء هو ما عشقت فما عشقت وجهها بل وجه الله الذي
أشرق عليها وعليك ذات مساء .

وحيثما يشرق وجه الله تنور المظاهر ويورق الشجر ويتفتح الزهر

ونجود الثمر ويبتسم الولدان وتهفو قلوب العشاق إلى من تعلقت به النعمة
وتجلى فيه الجود .

وساعتها تخطئ أقدامنا العنوان وتخطئ ألسنتنا الاسم الذى تسبح
له .. وننسى بارئ النعمة وننسى أنه لا أنا ولا أنت ولا هى لنا من الأمر
شئ ..

وإنما كل ما حدث أن الله قال بلسان المظاهر .. ذات مساء فى لحظة
تجل .. أنا موجود .. أنا بديع السماوات والأرض ..

ننسى كل هذا ونتوقف عند اللحظة ونتجمد عند القد والخد
والخصر والنهد .. وننسى مصدر الجود فينسأنا صاحب الفضل ويشيح
عنا بوجهه الكريم فتسقط الأوراق وتذبل الأزهار ويصفر الاخضرار
ويمتنع الإثمار ولا يبقى فى الحوض إلا عروق الخشب العجاف لا ماء فيها
ولا رحمة ولا مودة ولا حنان .. فيذيتنا الله الهجر ونحن فى القرب
وبربنا خيبة الأمل ونحن فى ذررة العمل ونحتم لنا بالخذلان ونحن فى
غفلة الهيمان .

وتلك هى صدمة العشاق التى أفاض فيها الشعراء وأطالوا وهى فى
صميمها لفظة رحمة من الله يوقظ بها الذين أنخلدوا إلى الأرض واتبعوا
الأهواء ونسوا المعشوق والمحبوب وصاحب الفضل .. والأصل كل
الأصل .. الاسم الجامع لكل الكمالات الذى كان عين النعيم وعين
اللحظة التى أشبهت الخلد وشاكلت الفردوس .

وذلك هو الأكل من الشجرة .

ثم الإهباط بعد الأكل من الشجرة .. والتزول من سماوات المعرفة
الرحيبة إلى سجون اللذات وزنزانة اللحظات .
تلك هى القصة التى تتكرر كل يوم منذ آدم وحواء وكلما اجتمع
ابن لآدم وبنت لحواء .

تتكرر الخيبة ويتكرر الخذلان .

ولا يعتبر عاقل ولا جاهل .

والذين أحبوا أو صدموا يعودون إلى حب جديد وإلى خيبة أمل
جديدة ولا يشبع أهل الأمل من خيبة الأمل .

وكل مرة تزداد الغواشى على الحس ويضيق مجال الرؤية وتضيق
الزنزانة على صاحبها ويغرق أهل الصبابة فى بحر الصبابة .

ولا ينجو من البحر إلا من عصم ربك .

إنما هو بحر الظمأ الذى يحرق بين ذراعى المرأة كلما شرب منه
الشارب ازداد ظمأً وكلما عبّ منه عباً احترق احتراقاً .. يظن أنه يرتوى
ويبتد .. فلا يبتد أبداً ولا يرتوى أبداً .. ولا يشبع أبداً .. ولا يسكن
أبداً .

إنما عنده هو السكن .

وبين يديه القرار والاستقرار .

صدق أبو العتاهية فى قوله :

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لى بأرض مستقرا

فلا مقرر لنا في هذه الأرض ولا وطن لنا فيها وإنما وطننا في بيت
المعاد الذى جئنا منه عند شجرة الخلد حقاً وليس عند شجرة الجوع
والظمأ التى أكل منها آدم ومازلنا نحن أولاده نأكل منها فنزداد جوعاً
على جوع ولا نعرف شبعاً ولا راحة .

إنما الحياة بجوعها .

وشجرة الأنوثة بريعتها وخريفها .

والزهور بتفتحها وذبولها .

والشمس بطلوعها وأقولها .

كلها رموز تتكلم بلسان الحال ..

بأنها كلها قصاصات وعينات وعبوات صغيرة تشير إلى عالم آخر فيه
النماذج المثلى والكمالات والأصول لكل هذا الذى نرى أمامنا في
صندوق الدنيا .. وكأنما يضع لنا الطاهى قطرة في ملعقة ويقول لنا ..
ذوقوا .

والحكيم هو الذى يذوق ويقول .. الله .. ما أحلى الطهو .. يذوق
فقط ولا يفكر في أن يجلس ليأكل .. لأنه يعلم أن الدنيا مناسبة
للتعرف .. وعينات للذواق .. وعبور سريع في نفق أرضى من أنفاق
المترو فيه صور ومعرضات .. وكل حظ الراكب لفئة هنا ولفئة هناك .

أما الجلوس للأكل والشروع في مباشرة الحياة الحققة فذلك لن
يكون إلا بعد انتهاء الرحلة والخروج من النفق الأرضى إلى السطح
حيث نجد في انتظارنا نعيم الخلد والجنة التى عرضها السموات والأرض
والحياة الجديدة بأن نحياها حقاً .. حيث أرض الكمالات وعالم المثل ..
وذلك حظ من اتقى وفهم وعرف .. وكان بينه وبين الله عمار وصلة
وعهد .

أما من قطع جبل الاتصال وعاش حياة الانفصال ولم يعرف لذّة
الوصال وانشغل عن الحقيقة بعالم الأوهام وتعلّقت همته بالصغار .
فذلك حظه البقاء في النفق المظلم ونصيبه الإبعاد والإهباط من نفق
مظلم إلى نفق آخر أشدّ إظلاماً ولا نهاية .. فليس للبعد نهاية كما أنه
ليس للقرب نهاية .. وليس لنعيم الله حدود كما أنه ليس لعذابه حدود .
ومن يتلفت حوله في الدنيا ويتأمل عجائب صنعة الله وغرائب
آياته يمكن أن يتصور كم يمكن أن يكون مذهلاً مذهشاً ذلك العالم
الكامل عالم الملكوت الذى صنعه نفس الصانع ووعد به أحبائه .
إن عظمة الصنعة من عظمة الصانع .

وليس أعظم من الله .

فكذلك نعيمه وكذلك عذابه .

وأهل القلوب لا تجف لهم دموع من تصور يوم الجمع .. وساعة
المصير .

وهم الباكون الراجفون الضارعون الداعون الراكعون الساجدون
في هذا السامر من الولايم الكاذبة على مائدة الدنيا حيث يعلم كل من
يأكل أنه سوف يموت .. ومع ذلك يقتل الغافلون بعضهم بعضاً على
اللقمة ويتنازعون على شربة الماء .

أولئك هم الصارخون في الخلوات .

إلهي .. ارزقنا .. خوفك ..

ضع الموت بين أعيننا .

فلا شيء يستحق البكاء سوى الحرمان منك ولا حزن بحق إلا
الحزن عليك .. باطل الأباطيل وقبض الريح كل شيء إلا وجهك .
أنت الحق .

وأنت مانري من جمال حيثما تطلعت عين أو استمعت أذن أو حلق
الخيال .

لا إله إلا أنت .

سبحانك .

إني كنت من الظالمين .

مسرح العرائس

أشعر بالندم يا إلهي حتى نخاع العظم من أني ذكرت سواك بالأمس
وهتفت بغير اسمك وطافت بخاطري كلمات غير كلماتك .
سمحت لنفسي أن أكون مرآة للسراب ومستعمرة للأشباح .
جهلت مقامي ونزلت عن رتبتي وترجّلت عن فرسي الأصيل
لأركب توافه الأمور ولأمشي مع السوق وأزحف على بطني مع دود
الأرض .

خدعني شيطاني واستدرجني إلى مسرح العرائس الذي يديره وآلي
تمائيل الطين والزجاج والحلى المزيفة .

استدرجني إلى بيوت القماش وقصور الورق وقدمني إلى ناس
يتسمون للمصلحة ويحبون للشهوة ويقتلون للطمع ويتزاوجون للتآمر ..
رجال وجوههم ملساء مدهونة ونظراتهم خائنة ولمساتهم ثعبانية ونساء
تغطيهن المساحيق فلا تبدو ألوانهن الحقيقية بشرتهن مشدودة ووجوههن

مكوية وخطواتهن حربائية وأيديهن تتسلل إلى القلوب بسرقة كل شيء
حتى الحقائق .

عالم جذاب كذاب يضوع بالعطور ويبرق بالكلمات .. عالم لرج
معسول تغوص فيه الأرجل كما يغوص النمل في العسل حتى يختنق
بخلاوته ويموت بلزوجته ..

والأصوات في هذا العالم كلها هامسة مبللة بالشهوة تتسلل إلى ما
تحت الجلد وتحترق الضمائر وتأكل الإيمان من الجذور .

تذكرتك يارب وأنا أمشي في هذا العالم فشعرت بالغبية
والانفصال ولم أجد أحداً أكلمه ويكلمني وأفهمه ويفهمني .. نبذوني
كلهم ورفضوني كما نبذتهم ورفضتهم .. وأحسست بنفسي وحيداً غريباً
مطروداً .. ملقى على رصيف أبكى كطفل يتيم بلا أم .

وسمعت في قلبي صراخاً يناديك .

كانت كل خلية في بدني تتوب وتتوب وترجع وسمعتك تقول في
حنان .. لبيك عبادي ..

ورأيت يدك التي ليس كمثليها شيء تلتقطني وتخرجني من نفسي إلى
نفسك .

واختفى ديكور القماش والورق وذاب مسرح الخدع الضوئية .

وعاد اللا شيء إلى اللا شيء ..

وعدت أنا إليك .

لا إله إلا أنت .

سبحانك

ولا موجود سواك

القرب منك يضيف .

والبعد عنك يسلب .

لأنك وحدك الإيجاب المطلق .

وكل ما سواك سلب مطلق .

علمت ذلك بالمكابدة وأدركته بالمعاناة وعرفته بالدم والعرق
والدموع ومشوار الخطايا والذنوب وأنا أقع في الحفر وأتعثر في
الفخاخ .. وكلما وقعت في حفرة شعرت بيدك تخرجني بلطف وكلما أطبق
على فخ رأتك تفتح لي سبيلاً للنجاة .. وكلما وضعوني في الأغلال
وأحكموا على الوثاق شعرت بك في الوحدة والمظلمة تفك عني أغلال
وتريت على كتفي في حنان وإلهامك يهدس في خاطري .. أما كفأك ما
عانيت يا عبادي .

أما اتعظت .. أما اعتبرت .. أما جاء اليوم الذي تثبت فيه قدمك
وتستقر خطاك على الطريق .

فأقول باكياً .

سبحانك يارب وهل هناك تثبيت إلا بك وهل هناك تمكين إلا
بإذنك .

أنت وحدك الذي أصلحت الصالحين وثبت الثابتين ومكنت أهل
التمكين .

تعطى الحكمة وتمنع الحكمة ولا تُسأل عما تفعل .

شفيعي إليك صدقي .

وعذري إليك حبي للحق .

وذريعتي إلى عفوك رغبتني في الخير .

فمن خطيئاتي نبتت الحكمة كما تنمو أزهار الياسمين من الأرض

السبخة .

ومن دموع ندمي علمت الناس فصدقوني حينما كلمتهم لأنهم رأوا

كلماتي مغموسة بدمي ومن عثراتي وسقطاتي أضأت مصباحا هاديا يجنب

الناس العثرات .

وكل من عبر طريق قلتي له كلمة صدق ودلته على السلامة .

ربنا ما أتيت الذنوب جرأة مني عليك ولا تطاولا على أمرك وإنما

ضعفا وقصورا حينما غلبني ترابي وغلبتني طبيعتي وغشيتني ظلمتي .

إنما أتيت ما سبق في علمك وما سطرته في كتابك وما قضى به

عدلك .

رب لا أشكو ولكن أرجو .

أرجو رحمتك التي وسعت كل شيء أن تسعني .

أنت الذي وسع كرسيك السموات والأرض .

لا شيء يساوي الحرية

حينما رفع النبي يوسف أكف الدعاء لربه مستنجدا من غواية النسوة

قائلاً :

(رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) .

كان يطلب حرية ولم يكن يطلب سجناً .

والمسألة نسبية .. فما يحصل عليه من حرية في زنازة وهو مقيد

اليدين والقدمين أكثر بكثير مما يتبقى له من حرية ساعة شهوة .

فحينما تجمع الشهوة لا تبقى لصاحبها حرية فهو لا يرى إلا على مرمى

ساقين ولا يسمع إلا على مرمى شفتين ولا يعي حكمة ولا يبصر عاقبة ولا

يحفظ عهداً ولا يرعى واجباً .. وهو أعمى أصم مقيد الذراعين

والساقين إلى حركة آلية وفعل لا معقول كل هرمونات ودمه وفكره وحسه

ومواهبه في خدمة هذه اللحظة اللامعقولة من الإشباع والقناء الذي

يشبه السقوط في هوة الاشياء .. وذلك هو منتهى السجن ومنتهى

استنفاد الطاقة واستفراغ القوة وإنهاك العزم وتبديد الهمة .. ثم لا يكون بعد ذلك إلا الخمول والبلادة والاسترخاء والرغبة في النوم والرغبة في عدم التفكير في شيء .

تلك الزوبعة التي تعصف بالدم وتطيش بالعقل وتذيب المفاصل وتأسر الجسد هي ذروة العبودية .

ولهذا قال النبي يوسف صارخاً .

ربّ السجن أحبّ إلى من هذا الخضوع لهؤلاء النسوة .. فالزنازلة ولا شك أرحب وأوسع من قبضة شهوة امرأة حينما تتسلل إلى النخاع وتغتصر المخ وتحجب العينين وتسدّ الأذنين وتغلق منافذ القلب فلا يعود شيء في الكون يسمع إلا لهاث أنفاسها .. فكأنما أصبحت هي المحراب والصنم والقبلة .. ومائدة القرايين .

والسجن هنا منتهى الحرية بالنسبة لهذا القيد الشامل المطلق .. وهو أحب ألف مرة لأيّ رجل في كمال وعقل النبي يوسف يريد أن يصعد ويخلق إلى السموات فلا شيء يساوى الحرية أبداً .

وأيّ لذة وأيّ مقابل فوريّ ماديّ أو حسّي لا يساوى عقلاً طليقاً وخيالياً محلقاً وفؤاداً مرفرفاً ووجداناً طائرًا وفكرًا مهاجرًا وقلبًا مسافرًا وأقدامًا ساعية لا تحدّ حركتها حدود .

نعم .. لا شيء يساوى الحرية .

وأحسن استثمار للحرية أن تبدلها لوجه الله فتجعلها في خدمة الحق

والعدل والخير .. فالعبودية للمخالق تحررك من العبودية للخلق وتخلع الحاكمة عن كل الذين حكموك فلا يعود يحكمك أحد ولا يعود يحكمك شيء .. بل تصبح أنت بحكم الخلافة عن الله حاكمًا على الكل .. وتصبح لكلماتك ربانية على الجميع .. ويطيعك البرّ والبحر والرياح وتنقاد لك الشعوب ويستمع إليك التاريخ .

كيف تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟

يقول سادتنا الأكابر :

منذ أن تفتح عينيك لتصححو حتى تغلقها لتنام لا تعلق همّتك بأمر من الأمور الدون .

لا تنم على غلٍّ ولا تصحّ على شهوة ولا تسع إلى طمع ولا تسابق إلى سلطة وإنما أجعل همّك واهتمامك في الخير والبرّ والحقّ والصدق ، والمروءة والمعونة قاصدًا وجه ربّك على الدوام .

حاول أن يكون فعلك مطابقًا لقولك وسلوكك مطابقًا لدعوتك .. فإذا غلبتك بشريتك وهزمك هواك في لحظة .. لا تيأس وإنما استنجد واستصرخ ربّك .. وقل : الغوث يارب .. يقل لك لبيك عبيد ويخرجك بيده من ظلمة نفسك إلى نور حضرته .

فلأنك إن كنت أحد عمّال الله في الأرض وأحد سفرائه إلى قلوب الناس .. فإنه سوف يرحمك إذا أخطأت ويغفر لك إذا أسأت ويعيدك إلى الطريق إذا انحرفت .. وسوف يرعاك ويتولّاك لأنك من

استنفاد الطاقة واستفراغ القوة وإرهاك العزم وتبديد الهمة .. ثم لا يكون بعد ذلك إلا الخمول والبلادة والاسترخاء والرغبة في النوم والرغبة في عدم التفكير في شيء .

تلك الزوبعة التي تعصف بالدم وتطيش بالعقل وتذيب المفاصل وتأسر الجسد هي ذروة العبودية .

ولهذا قال النبي يوسف صارخاً .

ربّ السجن أحبّ إلى من هذا الخضوع لهؤلاء النسوة .. فالزنازة ولا شك أرحب وأوسع من قبضة شهوة امرأة حينما تتسلل إلى النخاع وتعتصر المخّ وتحجب العينين وتسدّ الأذنين وتغلق منافذ القلب فلا يعود شيء في الكون يسمع إلا لهاث أنفاسها .. فكأنما أصبحت هي الخراب والصنم والقبلة .. ومائدة القرابين .

والسجن هنا منتهى الحرية بالنسبة لهذا القيد الشامل المطلق .. وهو أحب ألف مرة لأيّ رجل في كمال وعقل النبي يوسف يريد أن يصعد ويخلق إلى السموات فلا شيء يساوى الحرية أبداً .

وأيّ لذة وأيّ مقابل فوريّ ماديّ أو حسّي لا يساوى عقلاً طليقاً وخيالياً محلّقاً وفؤاداً مرفرفاً ووجداناً طائرًا وفكرًا مهاجرًا وقلبًا مسافرًا وأقدامًا ساعية لا تحدّ حركتها حدود .

نعم .. لا شيء يساوى الحرية .

وأحسن استثمار للحرية أن تبذلها لوجه الله فتجعلها في خدمة الحق

والعدل والخير .. فالعبودية للخالق تحرك من العبودية للخلق وتخلع الحاكمة عن كل الدين حكموك فلا يعود يحكمك أحد ولا يعود يحكمك شيء .. بل تصبح أنت بحكم الخلافة عن الله حاكمًا على الكل .. وتصبح لكلماتك ربانية على الجميع .. وبطبعك البرّ والبحر والريح وتنقاد لك الشعوب ويستمع إليك التاريخ .

كيف تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟

يقول سادتنا الأكابر :

منذ أن تفتح عينيك لتصححو حتى تغلقها لتنام لا تعلق همّتك بأمر من الأمور الدون .

لا تنم على غلٍّ ولا تنصح على شهوة ولا تسع إلى طمع ولا تسابق إلى سلطة وإنما أجعل همّك واهتمامك في الخير والبرّ والحق والصدق . والمروءة والمعونة قاصداً وجه ربّك على الدوام .

حاول أن يكون فعلك مطابقاً لقولك وسلوكك مطابقاً لدعوتك .. فإذا غلبتك بشريتك وهزمك هواك في لحظة .. لا تيأس وإنما استنجد واستصرخ ربّك .. وقل : الغوث يارب .. يقل لك ليك عبيد ويخرجك بيده من ظلمة نفسك إلى نور حضرته .

فإنك إن كنت أحد عمّال الله في الأرض وأحد سفرائه إلى قلوب الناس .. فإنه سوف يرحمك إذا أخطأت ويغفر لك إذا أسأت ويعيدك إلى الطريق إذا انحرفت .. وسوف يردّك ويؤثّر فيك لأنك من

جنده وحاشيته وخاصة .

ولا تيأس مهما بلغت أوزارك ولا تقنط مهما بلغت خطاياك .. فما جعل الله التوبة إلا للخطاة وما أرسل الأنبياء إلا للضالين وما جعل المغفرة إلا للمذنبين وما سمى نفسه الغفار التّوّاب العفو الكريم إلا من أجل أنك تخطئ فيغفر .

جدّد استغفارك كلّ لحظة تجدد معرفتك وتجدد العهد بينك وبين ربك وتصل ما انقطع بغفلتك .

واعلم أن الله لا يملّ دعاء الداعين .. وأنه يحب السائلين الطالبين المضارعين الرافعي الأكفّ على بابه .. وإنما يمقت الله المتكبر المستغنى المحتال المعجب بنفسه الذي يظن أنه استوفى الطاعة وبلغ غاية التقوى وقارب الكمال .. ذلك الذي يكلم الناس من علّ ويصافحهم بأطراف الأنامل .

ثم بعد التوبة والاستغفار والتخلّي عن الذنوب والتبرؤ من الحول والطول .. يأتي التّحبّب والتّقرب والتخلّق والتحقّق .

حاول أن تتحلّى بأخلاق سيدك .. فإذا كان هو الكريم الحليم الصبور الشكور العفو الغفور .. فحاول أن يكون لك من هذه الصفات نصيب .

فإذا غالبتك نفسك الأمارّة .. اسجد وابك وتضرّع وتوسّل .. وقل بين دموعك :

يا من عطفت على الطين فنفت فيه من جمالك وكمالك .

يا من أخرجت النور من الظلمة .

يا من تكرّمت على العدم

أخرجني من كثافتي وحرّرتني من طينتي وخلصني من ظلمتي وقوّني على ضعفي وأعّنتني على نفسي .. فلا أحد سواك يستطيع أن يفعل هذا .. أنت يا صانعي يديك .

ثم يقول سادتنا الأكابر :

إن الجهاد يطول فلا تتعجل الثمر .. فكلمنا عظمت الأهداف طال الطريق .. فلا تبرح الباب .. وأطل السجود .. وأدم البكاء .. فإنك لا تطلب نيشاناً أو جائزة وإنما تطلب وجه صاحب العرش العظيم . تطلب ربّ السموات .

تطلب العزيز الذي لا يرام .

وذلك مطلب لا يبلغه طالبٌ إلا بعد أن يبتلى ويمتحن ويتحقق إخلاصه .. ويشهد الملائكة منزلته ويرى الملائكة الأعلى بيته .

فكيف يصحب الملائكة المقربين إلا النفر الكرام الذين تخلّقوا بأخلاقهم .

وكيف تصعد إلى السماوات إلا بعد أن تلقى بمتاعك الأرضي وأثقالك .. ثم تلقى بنفسك الحيوانية من حلق .. ثم تلقى بغرورك وأنايتك وشهوانك وأطماعك .. وتتجرّد من دواعي بشريتك .. وتعود

كما خلقت الله نوراً من نوره .
حيث تبلى الحرية حقاً .. وتشاكل الأبرار والشهداء والقديسين
والملائكة .. فتسمعهم ويسمعونك وتكلمهم ويكلمونك .
وذلك معراج يحتاج إلى عمر بطوله وإلى زادٍ من التقوى والمحبة
والطاعة وصبر على البلاء ولا يقدر على هذا إلا آحاد .
ولهذا خلقت الجنة .
ولهذا كانت الأكثرية ترتع في النار من الآن .

دعاء العبد الخطاء

إلهي ..

إنك ترى نفسي ولا يراها سواك .
تراها كالبيت الكبير الذي تصدعت منه الجدران وتهاوت السقوف
وانكفأت الموائد .
بيتاً مهجوراً يتعاوى فيه الذئاب ويلهو فيه القردة وتغرد العصافير .
ساعةً تتلألأ فيه الأنوار وتموج فيه أشعة القمر .
وساعةً أخرى مظلمةً مطموساً محطماً المصابيح تسرح فيه العناكب .
مرةً تحنو عليه يد الربيع فتفتتح الزهور على نوافذه وتصدح البلابل
وتغزل الديدان الحرير وتفرز النحلات الطنانة العسل .
ومرةً أخرى يأتي عليه الزلزال فلا يكاد يخلف جداراً قائماً لولا
ذلك الحبل الممدود الذي يتزل بالنجدة من سماوات رحمتك .
حبل لا إله إلا أنت سبحانك .

أنت الفاعل سبحانه وأنت مُجرى الأقدار والأحكام .. وأنت
الذى امتحنت وقويت وأضعفت وسرت وكشفت .. وما أنا إلا
السلب والعدم .. وكلّ توفيق لى كان منك وكلّ هداية لى كانت
بفضلك وكلّ نور كان من نورك .. ما أنا إلا العين والمحل وكلّ ما جرى
على كان استحقاق وكلّ ما أظهرت فى كان بعدلك ورحمتك .. ما
كان لى من الأمر شيء .

وهل لنا من الأمر شيء ؟!

مولاي .. يقولون إن أكبر الخطايا هى خطايا العارفين .. ولكنى
أسألك يارب أين العارف أو الجاهل الذى استطاع أن يسلم من الفتنة
دون رحمة منك .. وأنت الذى سويت نفوسنا وخلقتها ووصفتها بأنها
(لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) .

وأين من له الحول والقوة بدونك .. وهذا جبريل يقول لنيك لا
حول من معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتمكين
الله .

وهل استعصم الذين استعصموا إلا بعصمتك وهل تاب الذين
تابوا إلا بتوبتك .. وهل استغفروا إلا بمغفرتك .

إلهي .. لقد تنفست أول ما تنفست بك ونطقت بك وسمعت بك
وأبصرت بك ومشيت بك واهتديت بك .. وضللت حينما ضللت
عندما خرجت عن أمرك .

سألتك يارب بعبوديتى أن ترفع عني غضبك .. فيها أنا ذا وقد
خلعت عن نفسى كلّ الدعاوى وتبرأت من كلّ حَوْلٍ وطَوْلٍ ولبست
ثوب الذل فى رحاب قدرتك .

إنك لن تضيعنى وأنا عبدك .

لن تضيع عبداً ذلّ لربوبيتك وخشع لجلالك .
وكيف يضيع عبدٌ عند مولى رحيم فكيف إذا كان هذا المولى هو
أرحم الراحمين .

ربّ اجذبني إليك بجبلك الممدود لأخرج من ظلمتى إلى نورك ومن
عدميتى إلى وجودك ومن تفرّقى إلى جمعيتك ومن هوانى إلى عزّتك ..
فأنت العزيز حقاً الذى لن تضرك ذنوبى ولن تنفعك حسناتى .
إن كلّ ذنوبنا يارب لن تنقص من ملكك .

وكلّ حسناتنا لن تزيد من سلطائك .
فأنت أنت المتعال على كل ما خلقت المستغنى عن كلّ ما صنعت .
وأنت القائل :

هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى .

وأنت القائل على لسان نبيك :

(ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم) .

فها أنا ذا أدعوك فلا أكفّ عن الدعاء .. فأنا المحتاج .

أنا المشكلة .. وأنا المسألة .

أنا العدم وأنت الوجود فلا تضيعني .

عاونني ياربّ على أن اتخطى نفسي إلى نفسي . أتخطى نفسي
الأمارة الطامعة في حيازة الدنيا إلى نفسي الطامعة فيك في جوارك
ورحمتك ونورك ووجهك .

لقد جربت حيازة كل شيء فما ازددت إلا فقراً وكلما طاوعت
رغائبي ازدادت جوعاً وإلحاحاً وتنوعاً .

حينما طاوعت شهوتي إلى المال ازددت بالغنى طمعاً وحرصاً وحينما
طاوعت شهوتي إلى النساء ازددت بالإشباع عطشاً وتطلعاً إلى التلوين
والتغيير .. وكأنا أشرب من ماء مالح فأزداد على الشرب ظمأً على
ظمأ .

وما حسبته حرية كان عبودية وخضوعاً للحيوان المحتفى تحت جلدى
ثم هبوطاً إلى درك الآلية المادية وإلى سجن الضرورات وظلمة الحشوة
الطينية وغلظتها .

كنت أسقط وأنا أحسب أنى أحلق وأرفرف .

ونخدعنى شيطاني حينما غلّف هذه الرغبات بالشعر وزوقها بالخيال
الكاذب وزينها بالعطور وزفّفها في أبهة الكلمات وبخور العواطف ،
ولكن صحوة الندم كانت توقظني المرة بعد المرة على اللا شيء والخواء
إلهي .. لم تعد الدنيا ولا نفسي الطامعة في الدنيا ولا العلوم التي
تسخر لي هذه الدنيا ولا الكلمات التي احتال بها على هذه الدنيا ..

مرادى ولا بضاعتي .

وإنما أنت وحدك مرادى ومقصودى ومطلوبى فعاونني بك عليك
وخلصني بك من سواك وأخرجني بنورك من عبوديتي لغيرك فكل طلب
لغيرك خسارة .

أنت أنت وحدك .. وما أرتضى مشوار هذه الدنيا إلا لدلالة هذا
المشوار عليك وما يبهرنى الجمال إلا لصدوره عنك وما أقصد الخير ولا
العدل ولا الحرية ولا الحق إلا لأنها تجليات وأحكام أسمائك الحسنى
يامن . تسميت بأنك الحق .

ولكن تلك هجرة لا أقدر عليها بدونك ونظرة لا أقوى عليها بغير
معونتك .. فعاونني واشدد أزرى .. فحسبى النية والتوجه والمبادرة
فذلك جهد الفقير .. فليس أفقر منى .. وهل بعد العدم فقر .. وقد
جئت إلى الدنيا معدماً وأخرج منها معدماً وأجوزها معدماً .. زادى
منك وقوتى منك ورؤيتى منك ونورى منك .

واليوم جاءت الهجرة الكبرى التي أعبر فيها بحار الدنيا دون أن أبتل
وأخوض نارها دون أن أحترق .. فكيف السبيل إلى ذلك دون يدك
مضمومة إلى يدي .

وهل يدي إلا من صنع يدك ؟ .. وهل يدي إلا من يدك ؟ !

وهل هناك إلا يد واحدة ؟

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

سبحانك لا أرى لى يدًا .

سبحانك لا أرى سواك .

لا إله إلا الله .

لا إله إلا الله حقًا وصدقًا .

وذاذك هى واحدة الحسن .

الحسن كله منها .

والحب كله لها .

ويدك هى واحدة المشيئة .

الفعل كله منها والقوة كلها بها وإن تعددت الأيدى فى الظاهر وظن
الظانون تعدد المشيئات .. وإن تعدد المحبون وتعددت المحبوبات وظن
كل واحد أنه يقبل يد محبته .. فما يقبل الكل إلا يدك دون أن
يدروا .. سبحانك لا سواك .. ما يركع الكل إلا على بابك وما يلثم
الكل إلا أعتابك .. مؤمنون وكفرة .. وإن ظن الكافر أنه يلثم دينارًا أو
يقبل شفة أو خدًا فإنما هى أيدى رحمتك أو أيدى لعنتك هى ما يلثم
ويقبل دون أن يدرى .

وإنما هى أسماء وأفعال وأوصاف .

والمسمى واحد .

والفاعل واحد .

والموصوف واحد .

لا إله إلا هو .

لا إله إلا الله .

الحمد له فى الأول والآخر .

رُفعت الأقلام وطُويت الصحف وانتهت الكلمات .

الفهرس

صفحة

الحب ما هو ؟	٣
أناشيد الأئم والبراءة	٩
بدون خيانة من أحد	١٧
انقلاب	٢٧
العذاب ليس له طبقة	٣٩
عن الانتحار	٤٥
والمحصل صفر	٥٣
أراد أن يرحمها	٦١
أهل النار	٦٧
الشجرة	٧٣
مشرح العرائس	٧٩
لا شيء يساوى الحرية	٨٣
دعاء العبد الخطاء	٨٩

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٣١١٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٨٤٧-٧

١ / ٨٤ / ٩١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)